كتاب

أسس الحضارة الإسلامية



كريم جبر الحسن

دار الهادي

كتاب
«أسس الحضارة الإسلامية»

كريم جبر الحسن



الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com



الباب الأول

خصائص الحضارة الإسلاميّة

خصائص الحضارة الإسلاميّة[1]

مقدّمة:

إنّ الدِّين الإسلامي منهج ربَّاني أُرْسِل لإسعاد الناس جميعهم، ويتمُّ ذلك بتغيير الإنسان والارتقاء به نحو الأفضل والأحسن والأكمل، وبما أنه منهج ربَّاني صادر عن الذَّات الإلهية، فإنّ الله، سبحانه، يعرف طبيعة النفس البشرية ويعرف هواجسها، ويعلم جوانب القوَّة والضعف فيها، ويعرف ما ينفعها وما يضرها، ويعرف، سبحانه طرق تغيير هذه النفس والسلوك بها في الطريق الصحيح؛ حيث رضوان الله ورحمته وغفرانه، لذلك يبدأ الإسلام بالتغيير الفكري والروحي فيملأ عقل الإنسان وروحه بعقيدة نقية صافية تقنعه وترضيه، وتريح قلبه من الشكوك والوساوس والأوهام، وتجعل هدفه واضحاً في الحياة، وطريقه واضح المعالم والخطوات، لا يتيه ولا يتعثَّر في سيره إلى الله سبحانه.

إنَّ الإسلام يُعطي للمسلم تصوُّراً واضحاً عن الله سبحانه وعن الكون، وعن الإنسان وموقعه على صفحة الوجود، ثم يبيّن له الأهداف

(١) نشر في مجلة المنهاج - بيروت العدد الثالث عشر ١٤٢٠هـ.

العظيمة للرسالة الإسلامية. ويبدأ المسلم في الاطلاع على تفاصيل الشريعة الإسلامية وجزيئيات النظام الإسلامي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وخلال ذلك يتعرف المسلم إلى الأصول الأساسية لهذا الدين والميزات العامة للشريعة الإسلامية؛ وهذه الميزات هي أسس وقواعد ومناهج وطرق رئيسية تدخل تحت أبوابها تفاصيل التشريع الإسلامي جميعها ومن خلال معرفتنا لهذه الخصائص والميزات والصِّفات نستطيع إرجاع كل حكم شرعي وموقف عملي للرسالة الإسلامية إلى هذه الخصائص والمبادىء. تتمثَّل أهداف هذه الخصائص في تحقُّق بُعدين رئيسيَّين:

أوَّلاً: الوصول إلى تحقيق الخير والرَّفاه والحق والسَّعادة للبشرية.

ثانياً: سلوك أقصر الطرق وأفضل الأساليب، أو بالأحرى الطريق الوحيد الذي يضمن النجاح لتطبيق الشريعة الإسلامية، وذلك بسبب الميزات العالية والرَّاقية والعملية لهذه الخصائص.

إن هذه المبادىء والخصائص، بقدر ما تتعدَّد وتتكاثر، فإنها تجتمع وتأتلف وتتكامل لتحقِّق هدفاً واحداً هو تطبيق الرسالة الإسلامية على واقع الحياة. وقد يتساءل بعضهم عن الهدف من معرفة هذه المبادىء والخصائص وعن الفائدة من شرحها والخوض في تفاصيلها. وفي ما يأتي نذكر أهمَّ النتائج والأهداف التي تتحقَّق على ضوء معرفتنا بهذه المبادىء والسير وفق أصولها ومناهجها:

١ - تبيان عظمة التشريع الإسلامي وكماله وسموه ورفعته، وقوَّته وفاعليته.

٢ - تفيد معرفة هذه الخصائص قادة العالم الإسلامي وأئمة الفكر، ورجال التشريع، والسَّاهرين على تطبيق الإسلام والسائرين على نهجه والساعين في سيرهم إلى الله، تفيدهم جميعهم في أخذ أحكام الله نقيَّة

صافية، ويتوضح الطريق آمامهم فيسيرون على هدًى من ربِّهم لا يتخبَّطون ولا يتحيَّرون، ويزول الغبش من أمام أعينهم، فيسيرون في طريق واضحة المعالم، معروفة البداية والنهاية، وهذا هو ما يميز الإسلام: سمو في الهدف ووضوح في الطريق، وأخلاق راقية ومُثل سامية في الغاية والوسيلة.

إنَّ مبادىء الحضارة الإسلامية وخصائصها عديدة يمكننا إجمال أهمِّها بما يأتي:

١ - الإنسانيَّة

أهم ما يميّز الحضارة الإسلامية هو بُعدها الإنساني والعالمي، وقد نزلت الشريعة الإسلامية لتطبّق على الأرض وتنتشر في كل أنحاء الكرة الأرضية، فالإسلام للبشر كلهم وللإنسانية جمعاء، يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ويقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَـٰذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]. هذا مفهوم واضح يفهمه كل مسلم مهما كانت درجته الفكرية أو ذهنيته العقلية. وكثيرة هي النُّصوص الإسلامية التي تتحدَّث عن هذا المفهوم وتؤكد عليه من آيات قرآنية وأحاديث شريفة ومواقف عملية للنبي محمد ﷺ وللمسلمين الأوائل. إنَّ الإسلام «كان عالمياً بطبيعته، فمنذ اللحظة الأولى والقرآن يوجه الخطاب إلى الناس أجمعين، وأداة الخطاب «يا أيها الناس» تملأ القرآن وتتخلل آياته، وقد بلغ عدد مرات استعمال هذا الخطاب في القرآن نحو ثمانٍ وعشرين مرّة، كما ورد فيه «لفظ الناس» مئتين وأربعين مرّة، ولفظ «الإنسان» إحدى وستين مرّة. وقد كان رب المسلمين وإلههم، منذ اللحظة الأولى للدعوة، هو «رب العالمين» و«رب المشارق والمغارب» و«رب السموات والأرض». وقد كان الناس جميعهم خلقه، وكانوا

سواسية كالأخوة أمام والد كبير ورحيم[1].

ووردت، على لسان النبي محمد ﷺ، أحاديث كثيرة تؤكّد على مفهوم العالمية والإنسانية في الدِّين الإسلامي أهمّها ما ورد عنه ﷺ في خطبة حجة الوداع: «إنّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلُّكم لآدم، وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض فضل إلاّ بالتقوى»[2].

ومن جهة ثانية، فإن التشريع الإسلامي، في أصوله وأحكامه، وفي كل ما يستنبطه المجتهدون، يتوجَّه إلى سعادة الإنسان ومصلحته وراحته ودفع الأذى والضَّرر عنه، فأينما تكن منفعة الإنسان ومصلحته وخيره، فالإسلام يوجب ذلك أو يحثُّ عليه، وأينما كان ضرر الإنسان فإنَّ الإسلام يحرِّمه أو يكرّهه إلى النفس الإنسانية حسب درجات الأذى والمضرّة، يقول تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ويقول النبي محمد ﷺ: «خيرُ النَّاس من نفع النَّاس». ولو استقرأنا لائحة الواجبات والمحرَّمات في الإسلام، لوجدناها تصبُّ كلها في هذا الاتجاه، فالواجبات ذات منفعة عظيمة للإنسان في الدنيا والآخرة، والمحرَّمات ذات أضرار كبيرة وجسيمة في الدنيا والآخرة.

وقد لا يتبيَّن في بعض هذه الأحكام وجه المنفعة أو وجه المضرة للإنسان، ولكنها في جوهرها وحقيقتها تصب في هذا المفهوم. وما دام العلم لم يصل إلى نهايته بعد، فلا يحقُّ لنا الاعتراض على بعض المفاهيم أو الأحكام التي لم تتوصَّل عقولنا إلى إدراكها أو فهمها. إنَّ الإسلام دين الفطرة البشرية: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ

---

(١) من فلسفة التَّشريع الإسلامية، ص٥٢. د.فتحي رضوان، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٧٥م.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٦.

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] جاء بالأحكام والأنظمة والقوانين التي تلائم هذه الفطرة تماماً. وقد وهب الله سبحانه الإنسان المنزلة العظيمة في هذا الكون فهو محور حركته، وخليفة الله على أرضه، يتحرك وفق مشيئة الله وإرادته، وتركّزت تعاليم التربية الإسلامية على الإنسان لتربيته وتغييره ليؤدِّي دوره الرسالي المطلوب على أفضل وجه وأكمله.

تتبيَّن عالميَّة الإسلام وإنسانيَّته من خلال النُّصوص الإسلامية، ومن خلال المواقف العمليَّة للرسول محمد ﷺ، فالإسلام امتداد لرسالة إبراهيم عليه السلام يقول تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

ومن أوّل الأعمال التي قام بها الرَّسول محمد ﷺ إرساله الرسائل إلى ملوك عصره في أقطار الأرض يدعوهم إلى الإسلام واعتناق هذا الدين الحنيف، فأرسل ﷺ الرسائل إلى هرقل إمبراطور الرومان وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى ملك الحبشة وإلى ملك اليمن وغيرهم، الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على نظرة الإسلام العالمية وسعة أفقه ليشمل الإنسانيَّة كلَّها: «إنَّ الإسلام تميّز منذ انطلاقته الأولى بصفته العالمية أو الكونية الأممية، ليس بتوجيهه إلى الأمم والشعوب المختلفة فقط، بل بأخذه بفكرة تدرُّج المعرفة البشرية واستيعاب المرحلة اللاحقة لما قبلها وتخطِّيها لها، وإيمانه بوحدة العقل البشري ووحدة العالم رغم وجود خصائص تميِّز الشعوب والأمم»[1].

٢ - الوسطيَّة

إنَّ سبب إخفاق أغلب الأنظمة والأفكار التغييرية، هو إفراطها أو

(١) معالم على تحديث الفكر العربي، ص٩٧. د.معن زيادة، عالم المعرفة، رقم (١١٥)، الكويت، ذو القعدة ١٤٠٧هـ - تموز ١٩٨٧م.

تفريطها في المفاهيم والمواقف العمليَّة، فالغلوُّ في الشيء اكثر من مقداره وحقّه، أو الاستهانة به وغمط حقّه، يؤدِّيان - كلاهما - إلى الفشل والانحدار في النتائج، الأمر الذي يؤدِّي إلى ظهور المشاكل المتفاقمة والانحرافات المتواصلة، وينعكس ذلك كلّه على الإنسان، وعلى البشرية كلّها، على شكل جوع وفقر وأمراض وحروب وآلام ومشاكل لا تُعدُّ ولا تحصى.

إنَّ مذهب الوسطيَّة في الإسلام واضح كل الوضوح، واضحٌ في النَّص عليه في القرآن الكريم والحديث الشريف، وواضح في التطبيقات العملية للرسالة الإسلامية، فالقرآن الكريم ينصُّ صراحة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. أمَّا التشريعات الإسلامية فإنها تؤكّد على إشباع الرغبات المادية والحاجات الروحية على حدٍّ سواء، فالإسلام يدعو الإنسان إلى عبادة الله والتقرّب إليه، ويدعوه أيضاً إلى الاستمتاع الحلال بملذّات الحياة الدنيا، والإسلام يرفض البخل ويرفض الإسراف، ويحث على اتخاذ موقف وسط بينهما. يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. كما أن الإسلام يُعطي حقّ الفرد وحق الجماعة على السواء، فلا يُوغل في الفردية ولا يوغل في الجماعية، بل حالة الوسط هي أفضل الأشياء.

إنَّ السَّير في وسط الطريق لا يعني أنَّ الإنسان المسلم يعيش مذبذباً في حياته، لا يسلك طريقاً معيّناً، ولا يلتزم موقفاً محدّداً، وإنما يعني ذلك أنَّ الإسلام يرفض الطرق والأساليب التي تسير خلاف الطبيعة البشرية والتي قد تسرف في جانب وتقصّر في جانب آخر، فتبخس شريحة من المجتمع حقّها، أو تقصّر في جانب حياتي ضروري لجسم الإنسان وعقله وروحه، الوسطية في الإسلام تعني مواكبة الحياة الإنسانية مئةً بالمئة، كما هي وكما خلقها الله، وكما ينبغي لها أن تكون. . .

٣ - المحبَّة والرَّحمة

أ - المحبة:

الإسلام دين المحبَّة، هذا ما نستنتجه بعد مطالعتنا للآيات القرآنية والأحاديث الشَّريفة التي تتحدَّث عن الحب الإلهي بين الله سبحانه وعباده المؤمنين من خلقه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، هكذا وصفت الآية القرآنية تبادل المحبَّة بين الله سبحانه والمؤمنين. ومن المواقف الأساسية في الإسلام أن يحب المسلم في الله ويبغض في الله في مسارات حياته كلّها، بحيث يكون ذلك مقياساً ثابتاً له في التعامل مع الناس، أن يحب الإنسان المسلم الإنسان الآخر بمقدار تقرّبه إلى الله سبحانه، ويكرهه ويبتعد عنه بمقدار ابتعاد هذا الإنسان عن الله، فالمؤمن يحب المطيعين لله ويبغض العاصين له، هذا ملخص لمفهوم المحبة في الإسلام، ولكن ما الذي تفيدنا إيَّاه هذه المحبة في مجال خصائص الحضارة الإسلامية؟!.. تفيدنا هذه المحبَّة من جهتين:

الجهة الأولى: ضمان تنفيذ التَّشريع الإسلامي وتطبيقه عملياً في حياة المسلم ثم في الحياة الاجتماعية كلّها للنّاس، فالإنسان المسلم حينما يحبُّ الله حبّاً صادقاً، ينفِّذ أوامره بحذافيرها عن حبّ واطمئنان قلب، لا يتأفَّف ولا ينزعج في شيءٍ حرّمه الله عليه، ويؤدِّي الأوامر والواجبات الإلهية بجدٍّ وإخلاص وعن طيب خاطر.

الجهة الثانية: حينما ينتشر مفهوم الحب في الله والبغض في الله بين الناس، ويكون المقياس المهم في مواقفهم وتعاملاتهم كلّها، فإنّ ذلك سيؤدِّي وبالتدريج إلى خلوِّ الساحة من العاصين والمجرمين والمحاربين لله ورسوله، وبذلك يأخذ التشريع الإسلامي طريقه إلى الحياة الاجتماعية بيسر وسهولة.

ب - الرحمة:

يمكننا إدراك عمق الرَّحمة الإلهية للإنسان، من خلال معرفتنا حالات الضعف البشرية، ومن خلال مطالعتنا للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تتحدَّث عن رحمة الله وعفوه وغفرانه. إنَّ الله سبحانه حينما خلق الإنسان خلقه من طين، وهو سبحانه يعلم بحالات ضعفه، ففتح له باباً سماه «التوبة». والتصور الإسلامي للإنسان يتعامل «مع هذا الإنسان الواقعي الممثل في هؤلاء البشر كما هم، بحقيقتهم الموجودة!.. مع هذا الإنسان ذي التركيب الخاص، والكينونة الخاصة، الإنسان من لحم ودم وأعصاب وعقل ونفس وروح، الإنسان ذي النوازع والأشواق والرغائب والضرورات، الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويحيا ويموت، ويبدأ وينتهي، ويؤثر ويتأثر، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويطمع وييأس، ويعلو وينحط، ويؤمن ويكفر، ويهتدي ويضل، ويعمر الأرض أو يفسد فيها، ويقتل الحرث والنسل.. إلى آخر سمات الإنسان الواقعي وصفاته المميّزة»[1].

أمام هذه الحالات، تتوالى الآيات القرآنية الكريمة لتشمل برحمتها الإنسان وتدعوه إلى التوبة، وتحذره من اليأس والقنوط... يقول تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٦]، ويقول تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، ويقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وتزخر كتب الفقه الإسلامي بالفتاوى التي تعبّر عن الرحمة الإلهية أصدق تعبير، فصلاة المسافر غير صلاة المقيم في وطنه، والصائم يفطر في سفره تخفيفاً عليه من العناء والمشقّة، وصلاة المريض كذلك، فالذي

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ص٢٠٣.

لا يقدر على أداء الصلاة وقوفاً يستطيع أداءها جلوساً، والذي لا يستطيعها جلوساً، يؤدّيها بحركات رأسه، والذي لا يستطيع ذلك يؤدِّيها برموش عينيه وهكذا. . . وهناك أمثلة كثيرة تعبّر عن الرحمة الإلهية للإنسان. .

إنّ هذه الرحمة هي طابع الرسالة الإسلامية في جميع مجالاتها ومواقفها الحياتية، ليس في الإسلام تعسّف ولا تعنّت ولا كبت ولا إكراه ولا اضطهاد، بل الإسلام دين الرحمة واليسر والسماحة والعطف والمحبة.

٤ - الاستقامة

ليس في أهداف الإسلام وأساليبه لفٌّ ولا دوران، وإنما غايات كلّها أخلاق وأساليب كلها شرف، الإسلام دين الاستقامة ودين الحق، دين الحقيقة، لا مراء في الإسلام، ولا انحراف في مبادئه وأساليبه، وتزخر النصوص الإسلامية بحثّ المسلمين على الاستقامة في سلوكهم، والثبات على مبادئهم، يقول سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجنّ: ١٦].

وفي الآية الكريمة: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ معانٍ كثيرة. . أن يستقيم المسلم كما أمره الله سبحانه، ويعمل بجميع ما ورد في الشريعة الإسلامية من اعتقادات وعبادات ومعاملات وسلوك يتعامل به المسلم مع الناس. . . إلى أبسط عملٍ يقوم به المسلم تجاه ربه وتجاه نفسه وتجاه الناس. . . وقبل ذلك كلّه يجب أن يخلص المؤمن في نيته، وأن يكون صادقاً مع ربه ومع الناس. . وأن يتعلق قلبه بالله في جميع أحواله. . . في السَّرَّاء أو الضرَّاء وأن يزهد بما في أيدي الناس. . يقول سبحانه: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] أن تتساوى سريرته مع علانيته، أن يكون

ظاهره ناصعاً وباطنه بمثل نصوع ظاهره.. حتى يطمئن له المؤمنون، وتصبح الثقة والصدق منهجين يلتزم بهما المسلم مع الناس في حياته كلّها..

إنَّ الكلام السابق يُطبّق في السلوك الشخصي للإنسان المسلم مع إخوانه المسلمين، ومع الناس الآخرين الشرفاء الطيِّبين الصالحين، ولا يشمل ذلك الأمور التي تتطلب الكتمان والتخطيط وعدم إفشاء الأسرار التي فيها مصلحة الإسلام والمسلمين، يقول النبي محمد ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»، وينطبق هذا الحديث على مواقف التجمُّعات الإسلامية وتصرفاتها بشكلٍ كبير، كالدولة الإسلامية أو الحركة الإسلامية، أو المؤمن الذي يكون لوحده أمَّةً بين الناس.

إنَّ الإسلام يؤكّد بوضوح أنَّ «الغاية لا تبرر الوسيلة»: «لا يُطاع الله من حيثُ يعصى» «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، كما ورد في الحديث الشريف، ولكن هناك استثناءات يسمح بها الإسلام، والاستثناء ليس كالقاعدة، بل هو الأمر النادر الوقوع، لأنَّ المسلم قد يمرُّ في حياته بمواقف محرجة تتطلَّب منه موقفاً معيناً وسلوكاً خاصاً قد يكون مخالفاً للشريعة الإسلامية، وهذا السماح يكون في حالة الاضطرار فقط وليس في حالة توفُّر الخيارات المتاحة، وحتى هذا الاضطرار يجب أن يخضع لشروط صارمة حدّدها القرآن الكريم بوضوح في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، يفعل الإنسان ما اضطُرَّ إليه شريطة عدم التعدِّي أكثر من اللازم، وأن لا يكون هناك بغي في استخدام الحكم الشرعي، أسلوبٌ واضح كل الوضوح في رفض «المكيافيلية» التي تعتقد بأن «الغاية تبرر الوسيلة».

إنَّ أكبر مرض اجتماعي ابتُلي به المسلمون ووقعت فيه بعض الهيئات الإسلامية، هو استخدامها الكثير لأسلوب «الغاية تبرر الوسيلة»، وتجرَّأ الكثيرون على أحكام الشريعة الإسلامية، وصار الشك بين هؤلاء

الناس هو السمة البارزة في حياتهم وفي مُعاملاتهم، ما أفقد الحياة الإسلامية الاجتماعية رونقها وصفاءَها.

إنَّ الإسلام يدعو بوضوح إلى الثَّبات على الإسلام إلى آخر الطريق، وخلال حياة المسلم كلها إلى أن يتوفَّاه الله سبحانه، وعليه أن يسلك خلال ذلك الطُرق والأساليب الشَّريفة.

٥ - الثَّابت والمتغيِّر

يُعَدُّ الثَّبات ميزة أساسية من ميزات الشريعة الإسلامية، ويشمل ذلك جميع المفاهيم والأحكام الإسلامية: ثبات العقائد، ثبات الحقائق، ثبات القيم، ثبات التشريعات، وهذا الثبات لا يعني الجمود والتقوقع والركود كما يدّعون، ولا يعني عدم قدرة الإسلام على مواكبة التطورات التي تطرأ على الحياة البشرية في مختلف جوانبها الفكرية والنفسية والاجتماعية، بل إنَّ هذا الثبات يستند إلى حقائق وأدلَّة دامغة لا يرقى إليها الشك، أهمُّها:

أ - إنّ هذا الدِّين هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، وهو سبحانه عارف بالحاجات الحقيقية للنفس الإنسانية، عارف بما ينفعها ويضرُّها، عارف بما سيطرأ عليها من تطوُّرات وتغيُّرات عبر التاريخ. ومن خلال هذه المعرفة الكاملة بالإنسان، وضع سبحانه هذا الدين بما يلائم هذه الحاجات ويسد رغباتها الحقيقية، وهو علاج ناجح لما يطرأ على النفس البشرية من أمراض وأوهام وانحرافات.

ب - إنَّ الله سبحانه خلق الإنسان وأودع فيه غرائز ثابتة لا تتغيَّر عبر الدهور، وفطر الله سبحانه الإنسان على مبادىء وقيم ومُثل تكفل سعادته، وفيها كل الخير إذا التزم بها الإنسان، وهذه المُثل والقيم يؤمن بها كل إنسان، ويعتقدها بعقله، ويطمئن لها قلبه، شريطة أن تظلّ النفس نقية وصافية لا يشوبها شيء، وكيف لا يكون ذلك وهو سبحانه خالق الإنسان

وبارئه ومصوّره، ولذلك نرى كثيراً من الفلاسفة والمفكرين وعلماء الحضارة يتفقون على كثير من الحقائق والمبادىء في ما يخص سعادة البشرية وصلاحها، نعرف ذلك من خلال أفكارهم المبثوثة في كتاباتهم، وهذا دليلٌ ساطع على ثبات الحقائق والقيم في النفس البشرية، مهما اختلفت جذورها الاجتماعية ومذاهبها السياسية. إنَّ التغيرات المادية والابتكارات في الوسائل من أجهزة ومعدّات، لا يمكن أن تجعل من الحقّ باطلاً، ولا من الصّدق كذباً، ويبقى الإنسان في خضم الأجهزة والآلات المتطورة هو الإنسان بنفسه ولحمه ودمه، وإذا تغيرت نفسيته، فهذا يعني تلوثه بالمحيط الذي يعيش فيه، ولا يعني أبداً تغيّراً جوهرياً وحقيقياً في حياته.

هذه الحقيقة الثابتة والواضحة، أكّد عليها الإسلام وثبّتها في قلوب المسلمين؛ وذلك من خلال الآيات القرآنية والحديث الشريف، يقول سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ويقول سبحانه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، ويقول تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

ويقول النبي محمد ﷺ: «حلال محمَّد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة».

ولا يقدح، في هذا الكلام، ما يستنبطه المجتهدون من أحكام يختلفون في ما بينهم في حرمتها أو حلِّيتها أو وجوبها أو استحبابها، فإن فتاواهم هذه تخصُّ الفروع والجزئيات التي لا نصَّ واضحاً فيها؛ إذ لا اجتهاد في موضع النص، وهذه الأحكام هي آراؤهم الاجتهادية، وقد يصيبون وقد يخطئون فيها، مثلهم مثل القاضي إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجرٌ واحد.

ومع هذا كله، فإن الإسلام حينما ظهر على الكرة الأرضية بوصفه رسالة سماويّة، أخذ بنظر الاعتبار واقع الإنسانية وما قد يطرأ عليها من تغيُّرات وتحوُّلات، فوضع مبادىء وأحكاماً ثابتة، وترك للإنسان اختيار الوسيلة والطريقة شريطة أن تكون الوسيلة شريفة ليس فيها حرمة شرعية، فاستخدام الآلات واختيار الطرق الكفيلة بتطبيق الشريعة الإسلامية وسعادة الإنسان متروك أمرها للناس وللتطورات والتغيرات المستقبلية.

ثم وضع الإسلام استثناءات للتشريعات الإسلامية تُستخدم عند الضرورة وفي الحالات الطارئة فقط، لكي لا يقع الإنسان المسلم في عسر وحرج حينما يمر بظروف قاهرة يضعه فيها الإنسان المنحرف ويظلمه بها، أو قد يقع المسلم تحت ظروف طبيعية أو اجتماعية قاهرة، وهذه الحالات موجودة أو قد تستجدُّ في المستقبل، يمر بها الإنسان أثناء حياته اليومية أو خلال تأديته لواجباته الدينية كالصوم والصلاة وغيرها من الأحكام الشَّرعية.

وهكذا نرى الإسلام قد جاء بما يلائم الفطرة البشرية من مفاهيم وأحكام، وترك للمسلمين مساحات واسعة في الحياة يتصرَّفون بها حسب علمهم، وحسب ما يستجدُّ في العالم من تغيرات وتطورات، شريطة مراعاة الأخلاق والآداب الإسلامية.

٦ - الشُّمول والتَّكامل والتوازن

إذا ألقينا نظرةً سريعةً على أحد الفهارس الموضوعية للقرآن الكريم، أو الحديث الشَّريف، أو راجعنا أبواب الفقه الإسلامي وفصوله، في الكتب الفقهية، فإننا سنخرج بنتيجة مؤكّدة مفادها أنَّ الإسلام عقيدة إلهية ينبثق عنها نظام شامل وكامل للحياة، ففيه العقائد، وفيه الأخلاق، وفيه السياسة، وفيه الاقتصاد، وفيه العبادة، ونرى الإسلام يُولي اهتماماً كبيراً

لتنظيم العلاقات الاجتماعية كنظام الأسرة، وكيفية التعامل مع الناس، ويهتم بالتربية الشخصية للمسلم ويرشده إلى الآداب الرَّائعة، كآداب المشي والجلوس والأكل والشرب وغيرها.

هذا الاستنتاج المستند إلى الاستقراء الصحيح للتشريع الإسلامي يؤكّد صحة المقولة السابقة بشمول الإسلام لجميع جوانب الحياة، وإذا أردنا أن نعرف رأي الإسلام الصريح في هذه المسألة فأوّل ما نطالع القرآن الكريم نجد أن الآيات القرآنية تتوالى لتؤكّد شمولية الإسلام وكماله وتوازنه. يقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه الكريم محمداً ﷺ: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ويقول سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وفي الحديث الشريف: «ما من حادثة إلاّ ولله حكمه فيها». هذه النُّصوص الإسلامية تؤكد، بما لا يقبل الشك، أنَّ الإسلام يُحيط بالحياة بجميع تفاصيلها، وهو على أتم الاستعداد ليُعطي رأيه بكل ما يستجد في الحياة من وقائع وأحداث ومبتكرات يأتي بها التطوُّر المادي.

ومع هذا الشُّمول في الإسلام، هناك توازن وتكامل لجميع المبادىء والأحكام الإسلامية؛ أمّا التكامل، فإن الإسلام يشمل بتشريعاته جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية، فهو دين يعطي حق الدنيا وحق الآخرة ويشبع حاجات الرُّوح والجسد في آنٍ واحد، ليس هناك شيء لا يُعطي الإسلام فيه رأياً واضحاً. وخلاصة الأمر أن الإسلام دين كامل ومتكامل، وقد أشارت الآية القرآنية إلى كمال الدين الإسلامي بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣]. إن المفاهيم والتشريعات الإسلامية مترابطة في ما بينها ويكمل أحدها الآخر، فالصلاة تتأثر بالزكاة، والزكاة تتأثر بالصلاة، إذ لا يمكن أن يدفع المسلم الخمس أو الزكاة وهو لا يصلِّي، ولا يمكن للمصلِّي أن يؤدِّي صلاته بخشوع وهو خالي المعدة يتألم

جوعاً، ولا يمكن للجيش الإسلامي أن يخوض المعارك بنجاح من دون تربية جهادية وفكرية تدفع بالإنسان المسلم إلى التضحية والإيثار وطلب الشهادة.

إنَّ نجاح التشريعات الإسلامية في تغيير حياة الفرد والمجتمع منوط بتطبيق تشريعات الإسلام جميعها من دون استثناء، وإلاَّ فلا يمكن أن يؤدِّي المسلم دور الفاعل في الحياة في وسط مجتمع منحل فاسد بعيد كل البعد عن القيم الإسلامية. ولا يمكن أن تنجح التشريعات الاقتصادية والمالية من دون تغيير المحتوى الداخلي للأفراد عقلياً وروحياً ونفسياً، لأن تطبيق الأحكام الإسلامية لا يتمُّ ولا يأخذ مجراه إلى حيز التطبيق إذا كان الناس غير مقتنعين بالإسلام، ولم يتغيروا بمفاهيمه وأخلاقه. ولا يعني ذلك العجز عن تطبيق بعض مفردات الشريعة الإسلامية على واقع الحياة، بل يمكن ذلك، ولكنه لا يُعطي الثِّمار نفسها فيما لو طُبّق الإسلام بصورة كاملة وشاملة لجميع جوانب الحياة.

أمّا التوازن فيتجلى لنا من أول نظرة إلى الكون وكيف يسير في نظام دقيق وإلى جسم الإنسان، ثم نظرة فاحصة إلى النظم والمبادىء الإسلامية، يقول سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

كلُّ شيء بمقدار وحسب دوره وقدره لا يزيد ولا ينقص شيئاً. هكذا هي التعاليم الإسلامية وضعت وفق نظام دقيق ومحسوب بما يؤدِّي إلى تحقيق دورها كاملاً، فالمسلم الحقيقي لا يوغل في الماديات فتنتزع الإنسانية والرحمة من قلبه، ولا يسرف في التصوُّف والزُّهد في الحياة فيصبح إنساناً مشلول الحركة لا يستطيع التعامل مع الحياة بفاعلية وإيجابية ولا يتمكن من إدراك ما يجري حوله من أشياء وأحداث. شرَّع الله الإسلام ووضع مفاهيمه ونظمه وفق هيكلية فريدةٍ وتخطيط منقطع النظير، لكل

شيء دوره المحدد ووجهته المعلومة، فالصَّلاة لها آوقاتها وحدودها المعروفة، والزكاة لها موازينها المعروفة أيضاً، وللحاكم في الإسلام شروطه وواجباته، وللكدح في الحياة والسعي إلى الرزق وكيفية الإنفاق مجالاتها المحددة والواضحة في الشريعة الإسلامية، ليس هناك إفراط أو تفريط، ولا يجوز للمسلم أن يتعدَّى الحدود المرسومة له في الشريعة الإسلامية فيزلّ عن جادّة الطريق، ويخرج عن الهدى والصواب. إنَّ معرفة هذه الأمور بدقة والسير على توازناتها في الحياة يجعلنا نسير على الطريق الإسلامي الصحيح، ويجنِّبنا كثيراً من الانحرافات الشخصية والاجتماعية، لأنّ السير على هذا المنهاج يقودنا إلى الفوز والنجاح وإن الخطأ أو الانحراف في الالتزام بهذه الأمور، أكثر أو أقل مما طلبه الله سبحانه منا، يقودنا إلى التخبُّط والانحراف، وقد يُخرجنا عن الدين الإسلامي الحنيف.

إنَّ الله سبحانه وتعالى يؤكّد على هذا التوازن الدقيق في الشريعة الإسلامية ويأمرنا سبحانه بعدم الطغيان في هذا النظام الإلهي البديع، يطالبنا الله سبحانه أن نتعامل مع هذا الدين بكل حذرٍ ودقَّةٍ وتنظيم، أن يكون هناك توازن في التطبيق كالميزان يقول سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧، ٨]، ويقول تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، ويقول عزّ من قائل: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨].

٧ - الربَّانيَّة

إن أهمَّ ميزة تتصف بها الحضارة الإسلامية هي الألوهيَّة والربَّانية، أي أنَّ مصدر جميع الأفكار والتصورات والتشريعات الإسلامية هو الله سبحانه المهيمن على العالم كلّه، وله الأسماء الحسنى، وهو سبحانه يشعُّ من عظمته ونوره وجلاله على الإنسان وعلى الكون كلّه، والحضارة

الإسلامية هي منحة من منح الله سبحانه للإنسان المسلم وللبشرية قاطبة، فيتخلَّقُ المسلم بأخلاق القرآن الكريم، ويستلهم منه الآفاق الحضارية، فيسير على نهج الله القويم، وتأخذ التَّشريعات الإسلامية طريقها إلى الناس بيسر وسهولة، وتغمر الحضارة الإسلامية المجتمع الإسلامي برونقها وجمالها وإبداعاتها التي تُظهر الأهداف العظمى للإسلام بتحقيق عالم مثالي سعيد لا آلام فيه ولا أوجاع ولا حزن ولا نحيب بسبب متاع الحياة الدنيا، إنَّ الله سبحانه يأمرنا بأن نتعامل مع الحياة بخلق ربَّاني عظيم: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

هذه الربَّانية تحقِّق للحضارة الإسلامية ميزتين رئيسيتين تتفوق بهما على جميع المبادىء والنظم والأفكار الأخرى. الأولى: هي إلهية المصدر التي تضمن سلامة المبدأ الإسلامي من الخطأ والزيغ والانحراف. الثانية: ضمان تطبيق التشريعات الإسلامية جميعها على الناس، لأنهم آمنوا بها، واعتقدوا اعتقاداً جازماً بصحتها وأفضليتها على جميع المبادىء والمذاهب الأخرى، لأنَّ الإسلام يهتم بتربية الأفراد تربية روحية وخلقية، وبذلك يتركَّز جانب الاندفاع الذاتي للإنسان المسلم فيطبّق تشريعات الإسلام لوحده من دون رقيب عليه.

إنَّ الحضارة الإسلامية تقوم على «ردّ هذا الوجود كلّه إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية... إنَّ هذا التصور يقوم ابتداءً على تعريف الناس بربهم تعريفاً كاملاً شاملاً، يعرّفهم بذاته سبحانه، ويعرّفهم بصفاته، ويعرّفهم بخصائص الألوهية المتفرِّدة، التي تَفْرِقها تماماً من خصائص العبودية. كما يعرفهم بأثر هذه الألوهية في الكون، وفي الناس، وفي جميع العوالم والأمم الحيّة، ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جدّاً في القرآن الكريم، يصبح معه الوجود الإلهي في النفس البشرية، وجوداً أكيداً، واضحاً، موحياً، مؤثراً، يأخذ النفس من أقطارها جميعاً، وتعيش

معه النفس مشدودة إليه، لا تملك التفلّت منه، ولا نسيانه، ولا إغفاله، لأنّه من القوة والوضوح والفاعلية، بحيث يواجه النفس دائماً، ويتراءى لها دائماً ويؤثر فيها دائماً»[1]. يقول الشاعر التيجاني أحمد يوسف بشير في قصيدة «الصُّوفي المعذب»:

الوجودُ الحقُّ ما أوسعَ في النَّفس مداهْ
والسكونُ المحضُ ما أوثقَ بالرُّوح عُراهْ
كل ما في الكونِ يمشي في حناياهُ الإلهْ
هذه النَّملةُ في رقّتها رجعُ صداهْ
هو يحيا في حواشيها وتحيا في ثراهْ
وهي إنْ أسلمتِ الرُّوحَ تلقَّتها يداهْ
لم تَمُتْ فيها حياةُ الله إنْ كنتَ تراهْ

هكذا هو الوجود الإلهي الذي يحيط بالكون كله، ويتحرَّك هذا الكون وفق هداه سبحانه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١]. ويستمر الوجود الإلهي يتابع الإنسان ويرعاه حتى بعد مماته: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

إنَّ نجاح الحضارة الإسلامية وديمومتها وبقاءها راجعٌ إلى مصدرها الإلهي، وإن فشل جميع المبادىء والنظم الأخرى وانهيارها راجعٌ إلى مصدرها الإنساني الذي يعتريه النقص والخطأ والقصور في الإحاطة بجميع جوانب الحياة.

---

(١) المصدر نفسه، ص١١٥.

خاتمة

هذه هي أهم الصِّفات والخصائص التي تميز الحضارة الإسلامية عن باقي المبادىء والمذاهب والتصوُّرات. ويصفها أحد الكتاب فيقول: إنَّ الحضارة الإسلامية هي «إلهية المصدر، عربية اللغة، خلقية المبنى، مثالية القيم، إنسانية النزعة، متوازنة العناصر، واقعية التطبيق، تقويمية المنهج، ثابتة الأصول، عالمية المجال، فطرية الطبيعة والخصائص، ضرورية المقاصد والأهداف»[1]. ويصفها كاتب آخر فيقول: «الحضارة الإسلامية تتحصّن بالوحدة والتوحُّد، وتتسم بالكمال والشمول والتذوق والأناقة، وتستعلي بالألفة والمحبَّة والانسجام والوئام والطهر والنظافة والصدق والقوة، وتزهو بالتحرر والحركة والانطلاق الاجتماعي الخيّر في وجهته، يقودها إلى الله الالتزام بطاعته والأخذ بشريعته»[2].

---

(١) ندوة الإسلام والتحديات المعاصرة، الدكتور فتحي الدريني، ص٩١. منشورات مجلة الجهاد، المركز الثقافي، مالطا، سبتمبر ١٩٨٨م.

(٢) جوانب من الحضارة الإسلامية، د. عبد الرحمن علي الحي، ص٩. دار القلم، دمشق، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الله في التصور الإسلامي

إنَّ أصعب مشكلة فكرية واجهت البشرية منذ قديم الزمان وإلى وقتنا الحاضر، هي تصوّر إله الكون، وكيف يكون؟ وما هي صفاته؟ وماذا يريد من المخلوقين حتى يتقرّبوا إليه؟. . إنَّ ذلك يتوضح من خلال المراجعة السريعة للتاريخ الفلسفي والفكري للإنسانية، فأغلب الكتابات الفلسفية في عهد اليونانيين القدماء تدور حول الإله أو الآلهة المتعددة، وتزخر هذه المؤلفات بالأساطير التي تتحدث عن حكايات غريبة أو صراع مزعوم بين هذه الآلهة، ونتيجة لحركة الترجمة التي نشطت في العصر العباسي وتأثر الفلاسفة المسلمين بهذه الكتب وبالآراء التي وردت فيها، فقد تكررت التساؤلات في أذهانهم وذهبوا بعيداً في البحث عن إله الكون وتصوّره وتعمقوا في ذلك، فمثلاً جاء في الرسالة السابعة من رسائل أخوان الصفا التساؤلات التالية:

١ - هل هو ٢ - ما هو؟ ٣ - كم هو؟ ٤ - كيف هو؟ ٥ - أي شيء هو؟ ٦ - أين هو؟ ٧ - متى هو؟ ٨ - لِمَ هو؟ ٩ - من هوَ؟ ولا زال بعض الفلاسفة المحدثين متأثرين بهذه الأفكار فقد جاء في قصة الإيمان: «في الصباح الباكر حملتُ جونة الشيخ، وأمرَ كبيرُ القرية رجلاً، أن يدلني على البستان الذي يسرحُ الشيخ فيه، فسار بي حتى أوصلني إلى المسجد، ثم دلني على البستان وعلى المكان الذي جرت عادته أن يضع فيه الطعام فدنوت من سياج البستان، ووضعتُ الجونةَ في مكانها، ثم علّقتُ بحرفها ورقةً صغيرةً كتبتُ فيها هذه الكلمات: ما. . .؟ ومَنْ. . .؟ ومِمَّ. . .؟

وكيف. . . ؟ وأين. . . ؟ ومتى. . . ؟ ثم قفلتُ راجعاً»[١].

الحاجة الحضارية إلى التوحيد:

قد يتساءل البعض عن جدوى بحث هذا الموضوع الشائك في مجال الكتابة عن التصور الإسلامي للحضارة، ولكننا لو تمعنّا كثيراً في هذا الأمر لوجدنا ردوداً كثيرة وحججاً دامغة تزيل الشك وتقضي على كل مظاهر الإلحاد، فأساس الحضارة الإسلامية هو وجود الله سبحانه وتوحيده وطلب رضاه، لأنَّ الله سبحانه هو مركز الكون كله، وهو خالق كل شيء، ومنه نستمد كل التصورات والمُثل والمفاهيم الحضارية «إن تجاوز النظرة المادية في الطبيعة والإنسان والمجتمع إلى الله القدير، المنظّم، المنعم، الذي هو المثل الأعلى الكامل للكون والإنسان الناقصين، يرتفع بالإنسان في نظرته وسلوكه ارتفاعاً كبيراً ولا سيّما في خلقه وغاياته، وإنَّ هذه النظرة التي قدّمها الإسلام إلى العالم تركت آثاراً عميقة في مجرى التاريخ البشري»[٢]. والتوحيد ليس مسألة عقائدية فقط، بل هو مفهوم فكري يشع على حياة الإنسان الفردية والجماعية، ويؤثر فيهما تأثيراً عميقاً، ويُحدثُ فيهما تأثراً جذرياً وأساسياً بحيث يتغير السلوك الظاهري للأفراد والجماعات نحو الأفضل نتيجة الإيمان بهذه المسألة الحيوية، «إنَّ التوحيد، فضلاً عن كونه توكيداً، أو جزماً، لقضية تتعلق بالماورائيات وبطبيعة المطلق هو عملية دمج وتوحيد كامل وسبيل إلى التكامل وإلى تحقيق وحدة الوجود، كل ناحية من نواحي الإسلام تدور حول التوحيد، التوحيد الذي يسعى المسلم لتحقيقه أولاً في كيان الإنسان في حياته

---

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر ص٢٠ منشورات المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(٢) نظرة الإسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة، محمد المبارك ص٢١ - ١٩٥٨م.

الداخلية والخارجية، كل ظاهرة من ظواهر الوجود البشري ينبغي ان تكون متصلة بالشهادة، شهادة أن (لا إله إلا الله) هذه الشهادة التي هي أفضل تعبير يعبّر به المرء عن التوحيد ومعنى أنَّ الإنسان ينبغي له أن لا يكون موزعاً في فكره ولا في فعله، وكل عمل يأتيه، حتى الأشياء كالأكل والمشي، ينبغي أن يعكس مبدأ روحياً يعيش في ذهنه وفي قلبه»[1].

نستنتج من ذلك أنَّ الإيمان بالله سبحانه وتوحيده ليس مسألة فكرية عقائدية تعيش في العقول فقط، بل إنّ الإيمان بالله ذو تأثير بالغ الأهمية على صياغة تفكير الناس وتوجهاتهم وعواطفهم وسلوكهم وتحديد مسار حياتهم، بحيث تشع الفكرة على جميع جوانب الإنسان وتؤثر على كل مواقفه وسلوكياته فينطلق إلى المجتمع مستنداً إلى عقيدة واضحة وصحيحة.

الله في التصور الإسلامي:

إنَّ التصور الإسلامي لله سبحانه يمتاز بالدقة والبداهة والإحكام حيث يُعطي تصوّراً حقيقياً وصادقاً لله سبحانه، حيث يبدأ التصوّر الإسلامي بإثبات وجود الله سبحانه بأدلة حسية وفطرية وعقلية وفلسفية وغيرها.

بعد إتمام الأدلة وإكمال الحجة، يبدأ التصور الإسلامي بعرض صفات الله جلّ جلاله والتي هي عين ذاته غير منفصلة عنه عز وعلا، كالعلم والقدرة والكمال وغيرها من الصفات، والله في التصور الإسلامي ليس بجسم ولا يحدّ بمكان وأصلاً ليس كمثله شيء حتى يمكن تصويره، قدرته فوق كل قدرة وعلمه فوق كل علم وكماله فوق كل كمال، وكل

(١) الإسلام أهدافه وحقائقه، حسين نصر ص٢٦ الطبعة الأولى ١٩٧٤م الدار المتحدة.

شيء يزول، وهو الباقي لا يزول بزوال الأشياء، يعرض الإسلام ادلة حسية على وجود الله سبحانه كالنظر في ملكوت السموات والأرض، أو التأمل في جسم الإنسان، ممّا يدل على بديع صنع الله سبحانه، وهناك أدلة فطرية جاء ذكرها في القرآن الكريم وعلى لسان النبي محمد ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام كركوب سفينة في عباب البحر أو التعرض لمخاطر جدية تهدد حياة الإنسان فنراه يلجأ إلى الله ليخلصه من الشدة التي وقع فيها، خذ مثلاً نداء يونس عليه السلام في بطن الحوت يدعو الله لينجيه من الموت المحتم، وهناك أدلة عقلية وفلسفية كدليل الحدوث والعلية وغيرها، فالتصور الإسلامي لله سبحانه يتقبله كل إنسان عاقل عالم، ويتقبله الإنسان البسيط كالراعي والمزارع وغيرهما، نرى الله سبحانه في القرآن الكريم يخاطب عقل الإنسان وحسّه وفطرته، فالله سبحانه واحد لا شريك له ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. إن الكون سيفسد وسيدمر ويتحطم لو تعددت الآلهة، وهو ليس بشراً تطرأ عليه - تنزه عن ذلك - حالات الضعف والانحلال البشري، وهو سبحانه جعل العبودية له وحده، وطلب من البشر كلهم ألاّ يعبدوا سواه وأرسل رسله وأنبياءه مبشرين ومنذرين ليؤكدوا أن لا معبود سواه فليتوجهوا بالطاعة والعبادة له فقط ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكل عبادة لغير الله باطلة ومردودة، وأخبرنا الله سبحانه أنَّ الهدف الأساس من خلقه الكائنات الحيّة كلها عبادته ويجب رفض كل عبادة غير عبادة الله سبحانه، ووصف الله جل جلاله نفسه بالرب واتصف بالربوبية، فحينما خلق الخلق صورهم على أحسن خلقه وهداهم لأقوم طريق ورعاهم بلطفه وحنانه ورحمته بأن أرسل رسله ليهدوهم سبيل الرشاد حتى يسيروا في حياتهم سعداء يبتغون فضل الله ورضوانه، وهيأ لهم كل الظروف المناسبة لمعيشتهم وخلق كل شيء لراحتهم وسعادتهم من ماء وهواء ونباتات وحيوانات فجعل الإنسان مركز الكون كله وسخّر له ما في السموات والأرض فهو سبحانه: ﴿ ٱلْخَالِقُ

﴿ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] وهو: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] خالق الكون كله الله وحده - أمّا صفاته فيقول سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] لا يمكننا تحديد شكل الله سبحانه إذ أن ذلك خارج عن قابليات عقولنا إذ لا يوجد شيء في الكون يشبهه، ويصف لنا سبحانه عظمته وإحاطته بكل شيء بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]، فالله سبحانه خالق الإنسان ومصوّره على أحسن صورة وتقويم، وهو سبحانه خالق السموات والأرض بتنظيم دقيق وإبداع في الروعة والجمال ينطق بوجود الله وبوحدانيته، والله سبحانه ليس له شبيه ولا مثيل ولا يمكن أن يحدَّ أو يُعَدَّ بمكان أو زمان فهو سبحانه أوّل بلا أوليّة وآخر بلا آخرية... هو علة كل الظواهر التي تُحيط بنا، وإليه يرجع الأمر كله، وهو سبحانه المهيمن على الكون والمدبّر أمره آناء الليل وأطراف النهار... قال الإمام علي عليه السلام: «من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله ومن قال كيف فقد استوضعه ومن قال أين فقد حيّزه»(١). وقال عليه السلام: «الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حدّ محدود... من جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال (فيم) فقد ضمّنه، ومن قال (علام) فقد أخلى منه»(٢)... وسُئل أمير المؤمنين عليه السلام: بِمَ عرفت ربَّك؟ فقال: بما عرّفني نفسه. قيل: وكيف عرّفك نفسه؟ فقال: «لا تشبهه صورة، ولا يحس بالحواس ولا يقاس بالناس». هذا تنزيه عظيم لله سبحانه عن كل تشبيه وتمثيل، ولا يعني هذا الكلام مطلقاً الهروب من التعريف الدقيق لله سبحانه، والإغراق في نفي الصفات عنه دليل على عدم المعرفة به، بل

---

(١) ميزان الحكمة ري شهري ص١٦٩، ص٦ الطبعة الثانية مكتب الاعلام الإسلامي إيران - قم.

(٢) المصدر السابق ص١٦٣.

حاشا لله أن يكون كذلك، بل إنّ هذه المسألة تندرج في ناحيتين:

الأولى: هي محدودية الإنسان القاصر المخلوق أن يدرك أو يحيط بالله الخالق المصوّر، والمحدود لا يمكن أن يحيط باللامحدود.

والثانية: إنَّ الأثر يدلّ على المؤثر، وآثار القدم تدلّ على المسير، ولذلك فإنَّ آثار الله الكثيرة والعظيمة على الأرض أو المبثوثة في أنحاء الكون لتدلّ دلالة ساطعة على وجود الله سبحانه وعظمته، وإن هاتين الناحيتين تحتاجان إلى شرح وتوضيح وتفصيل وكتب العقائد وعلم الكلام والفلسفة طافحة بشرح ذلك.

يوضح الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية عظمة الله سبحانه، وتنزيهه عن كل أنواع الشرك ثم يبيّن مسألة خلقه للكون والإنسان والحياة ورعايته سبحانه للإنسان أثناء حياته ثم يتوفاه الله سبحانه حينما يموت فيلاقي الجزاء المناسب له، وبذلك يصوّر لنا الإمام السجاد عليه السلام في كلمات قليلة التصور الإسلامي لله سبحانه وللمسيرة الحياتية للإنسان في هذه الدنيا فيقول عليه السلام: «الحمد لله الأوّل بلا أول كان قبلَهُ، والآخر بلا آخر يكون بعده الذي قَصُرت عن رؤيته أبصار الناظرين وعجزت عن نعته أوهام الواصفين، ابتدعَ بقدرته الخلقَ ابتداعاً، واخترعهم على مشيَّتِهِ اختراعاً، ثم سلك بهم طريقَ إرادته، وبعثهم في سبيل محبته، لا يملكون تأخيراً عمَّا قدَّمهم إليه، ولا يستطيعون تقدّماً إلى ما أخّرهم عنه، وجعل لكل روح منهم قوتاً معلوماً مقسوماً من رزقه، لا ينقص مَن زاده ناقصٌ، ولا يزيدُ من نَقَصَ منهم زائد، ثم ضربَ لهم في الحياة أجلاً موقوتاً ونصبَ له أمداً محدوداً يتخطّى إليه بأيّام عمره ويرهقه بأعوام دهره، حتى إذا بلغ أقصى أثره، واستوعبَ حسابَ عمره، قبضه إلى ما ندبهُ إليه»[1].

(١) الصحيفة الكاملة السجادية للإمام السجّاد علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام=

يصوّر لنا الإمام السجاد عليه السلام خلقة الله للكون ابتداعاً ثم يبيِّن صفات الله سبحانه التي يعجز عن إدراكها البشر القاصرون، ثم يبيّن سبحانه رعايته للإنسان طوال حياته، حتى إذا انهك الإنسان التعب وتقدم في العمر واستوفى كل شيء من عمره، قبضه الله وتوفاه ليحاسبه يوم القيامة.

ويقول الشهيد سيد قطب: «إن الإنسان في التصور الإسلامي يتعامل مع الله موجود خالق، مريد، مدبّر، مهيمن، قادر، فعّال لما يريد كامل الإيجابية والفاعلية.. إليه يرجع الأمر كله وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداعاً وكل انبثاقة فيه بعد ذلك، وكل حركة وكل تغيّر وكل تطور، ولا يتم في الكون شيء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره، وهو سبحانه مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده، في كل حالٍ من أحواله ولكل حيٍّ ولكل شيء في هذا الوجود كذلك»(1). إنَّ الإيمان بالله وتوحيده وتقديسه في الإسلام من العظمة والجلال بحيث يفوق كل المبادىء والأديان الأخرى، إيمان مطلق وتنزيه مطلق وتقرّب إليه من قبل العبد بأفضل ما يتقرب إليه المتقرّبون.

ارتباط المسلم مع الله: إن الحديث عن ارتباط المسلم المؤمن مع الله حديث يطول ويطول ويصعب بدايته أو منتهاه، لأنَّ علاقة الإنسان المخلوق الضعيف المحتاج بالله الخالق الرحيم الودود علاقة عظيمة وجليلة، وإذا أردنا أن نختصر علاقة المسلم بربه في كلمات معدودة، يمكننا أن نقول إنَّ الإنسان المسلم وخلال مسيرة حياته يعيش حالة الفناء في الله، ويسعى في كل ذلك التقرب إليه لنيل محبته ورضاه، ويكدح المؤمن ليله ونهارَه للقاء الله على أفضل نية وعمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ

= - الدعاء الأول - دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان.

(1) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته - سيد قطب ص173.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، كدحٌ متواصل وسعيٌ دؤوب للوصول إلى حبِّ الله وعفوه وحنانه ورضاه. المسلم يعيش حالة الهجرة إلى الله سبحانه ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. الهجرة إلى الله تعني الصفاء والنقاء وتطهير النفس من كل ما يعلق بها من أدران وشوائب تعيق حركتها وتثبط من اندفاعها نحو السمو والرقي والكمال.. ومع هذه الهجرة المباركة ومع هذا الكدح المتواصل من المسلم المؤمن نحو الله، فإنَّ الله سبحانه يراقب عباده الذين خلقهم، يعلم كل دقائق حياتهم، ينصرهم ويؤيدهم، هو سبحانه معهم في حلّهم وترحالهم ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]... إنّ علاقة المسلم مع الله لا تنقطع أبداً حتى في حالات الاسترخاء والنوم، فما دامت دقات قلب المؤمن تنبض بالحياة فهو في اتصال مستمر مع الله سبحانه، هكذا هي العلاقة الصادقة التي تملأ كيان المسلم وروحه وقلبه باليقين الكامل، والالتجاء الصادق إلى الله سبحانه، المؤمن يعرف عظمة الله معرفة كاملة يخشع لها قلبه تمام الخشوع، وتنقاد روحه لله تمام الانقياد، يدأب المسلم بحرص كامل على أن ينال رضى الله بالتقرب إليه بالطاعات المتواصلة والابتهالات الخالصة، وبالخوف منه والرهبة من أن يرتكب معصيةً أو ذنباً، لا لقدر الذنب بل لعظمةِ من عصاه..

«الطبيعة والكون في الإسلام»

الإنسان لا يعيش بمفرده في هذا الكون، ولا يمكنه العيش بدون الطبيعة وبدون التلاؤم معها، وهذا أمرٌ بديهي يعرفه كل إنسان، إذ لا يمكن العيش بدون الهواء الذي يملأ رئتي الإنسان ويُحدث عمليات كيمياوية داخل جسمه، ولا يمكن للإنسان أن يحيا بدون الماء الذي يشكل نسبة عالية في جسمه، يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. . . والأرض. . . والشمس. . . والقمر. . . والرياح. . . والأمطار. . . كل ذلك يؤثر في حياة الإنسان سلباً أو إيجاباً. .

إن استخدام الطبيعة استخداماً صحيحاً واستثمار خيراتها يحقق الرفاه في حياة الإنسان ويضمن سعادته، وإنَّ ذلك يتوقف على فهم الإنسان للكون والطبيعة فهماً جيّداً، مما يؤدي إلى فهم الغاية من خلق الكون والوجود، وكيفية التعامل مع الطبيعة تعاملاً صحيحاً. إنَّ الطبيعة تؤثر في حياة الإنسان تأثيراً كبيراً ويمكن أن تقلب حياته رأساً على عقب. والإنسان كذلك يؤثر على الطبيعة. سلباً بتلويثها وتدميرها بالحروب وبالنفايات والغازات السامة وبأمور أخرى، وإيجاباً باستثمارها والمحافظة عليها ومعرفة الأسباب والقوانين الإلهية التي تتحكم فيها.

إنَّ تصورنا الواضح للكون والوجود يساعدنا كثيراً في اتخاذ المواقف، والتزام السلوكيات الصحيحة، والتخطيط لحياتنا تخطيطاً علمياً ناجحاً، وإن معرفتنا الكاملة والصحيحة للكون لا تؤدي إلى اليأس

والإحباط، بل تجعل نظرتنا علمية وواقعية وتدفع بنا جدياً للبحث عن السبل الكفيلة بتجنيب الإنسان الكوارث الطبيعية التي تحلُّ به.

النظام الكوني الدقيق:

إن الكون وما فيه ومن فيه يسير وفق نظام دقيق، وفي مقادير محسوبة بإتقان، وفي اتجاهات محدّدة، يؤدي كل ما فيه ومن فيه دوره المقدّر له في هذه الحياة، هذا النظام يعيه كل إنسان من أكبر عالم أو فيلسوف إلى أبسط إنسان يعيش في البادية، يفهمه العالم في مختبراته أو من خلال المرصد الفلكي الذي يشاهد فيه السماء وما فيها من كواكب ونجوم أو من خلال الصور التي ترسلها الأقمار الصناعية، ويفهمه الفلاّح من آثار الله سبحانه في أرضه، وإنَّ الشيء لا يتحرك بدون محرّك، وإن المغزل لا يدور بدون أن تحركه المرأة في البادية فكيف بدوران الأرض والشمس والقمر والنجوم؟! إنَّ الدقة في الكون تشمل أكبر شيء وأصغر شيء في الحياة كجسم الإنسان وأوراق الشجر وقطرات المياه..

والذي يريد أن يستزيد في معرفة ذلك فأمامه الكون الفسيح، والطبيعة المتنوعة الخلاّبة، وآلاف الكتب ووسائل الإيضاح التي تبيّن عظمة الله في مخلوقاته، ولو تصفحنا القرآن الكريم لنجد آيات عديدة تؤكد على هذا النظام الدقيق، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ويقول سبحانه: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ويقول تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، ويقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ١٩ - ٢٢]، ويقول الله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] ويقول تعالى: ﴿فَالِقُ

﴿ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ﴾ [الأنعام: ٩٦].

ومن خلال الدراسة المعمقة والملاحظة الدقيقة لطبيعة العلاقة بين الكون والطبيعة والإنسان، نجد الملائمة التامة لهذه العلاقة، وأن الكون وما فيه يحقق الفائدة والنفع للإنسان، وأنَّ الأرض وما فيها من معادن ونباتات، وما عليها من هواء وماء وحيوانات، ملائم للاستفادة البشرية ولطبيعة الإنسان ومكونات جسمه. إنَّ الله سبحانه يؤكد على أنّ كل ما في الطبيعة مسخّر لخدمة الإنسان وفائدته ومصلحته يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ﴾ [الجاثية:١٣]، ثم تفصّل الآيات القرآنية الكريمة في تبيان ما خلق الله سبحانه ومقدار نفعه للإنسان... السماء وما فيها من كواكب ونجوم، والأرض وما فيها من سهول وجبال وهضاب... وما تُخرج الأرض من أشجار ونباتات ومن كل زوج بهيج يقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦ - ١١] ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦ - ١٦].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٣ - ٤].

وبعض الآيات القرآنية تخاطب المسلمين مباشرة وبكل وضوح: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

ويقول تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٤]. يقول ابن رشد في توضيح الملائمة بين خلق الطبيعة وخلق الإنسان: «كما أن الإنسان إذا نظر إلى شيء محسوس فرآه قد وُضع بشكل ما، وقدر ما، ووضع ما، موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس، والغاية المطلوبة منه، حتى يعترف أنّه لو وجد بغير ذلك الشكل، أو بغير ذلك الوضع، أو بغير ذلك القدر، لم توجد فيه تلك المنفعة، وأنه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الأشياء لوجود تلك المنفعة بالاتفاق كذلك الأمر في العالم كلّه، فإنه إذا نظر الإنسان إلى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هي سبب الأزمنة الأربعة وسبب الليل والنهار، وسبب الأمطار والمياه والرياح، وسبب عمارة أجزاء الأرض، ووجود الناس وسائر الحيوانات البرية، وكذلك الماء موافقاً للحيوانات المائية، والهواء للحيوانات الطائرة، وإنه لو اختلّ شيء من هذه الخلقة والبنية لاختلّ وجود المخلوقات التي ههنا، علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق، بل ذلك عن قاصد قصده، ومريد أراده، وهو الله عز وجل وعلم على القطع أنَّ العالم مصنوع»[١].

(١) مجلة عالم الفكر - المجلّد الأول - ص١٢٧، الإنسان والكون في الإسلام أبو الوفا الغنيمي التفتازاني وزارة الإرشاد - الكويت - العدد الثالث ١٩٧٠م.

مع هذا النظام الكوني الدقيق الذي يحقق أكمل التلاؤم مع طبيعة النفس البشرية، ويحقق الفائدة القصوى والنفع العميم للإنسانية كلها، تهيمن الإرادة الإلهية على هذا الكّون وتراقبه بدقة متناهية وتحيط به من كل جوانبه يقول الله عز وجل: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١]. إن الله جلّ جلاله يهيمن على العالم كلّه بنوره وقدرته وحكمته، وبدون هذه القدرة الإلهية فإنّ الكون سيزول ولا يستطيع أحدٌ أن يوقف هذا الزوال.

كيف نتعامل مع هذا الكون؟

الصورة التي عرضناها سابقاً للكون هي الصورة الظاهرية أمامنا. . . فكيف ننظر إليه؟ وكيف نتعامل معه؟ . . إننا لا يمكن أن نتعامل مع هذا الكون تعاملاً صحيحاً ونحقق الانسجام التام معه ما لم نفهم هذا الكون على حقيقته، ونفهم الغاية التي من أجلها خلق الله سبحانه العالم من حولنا.

إنّ الكون يشتمل على كائنات حيّة وكائنات جامدة، أمّا الكائنات الحيّة فواضحٌ أمرها من الناحية المادية والفسيولوجية ومن الناحية الاجتماعية أيضاً، حيث يوضح لنا الله عز وجل أنّ كل كائن يدبُّ على الأرض إنما هو جزء من أمة، كأمة الناس، ولهذه الكائنات أساليب في المعيشة خاصة بها، ولها عادات وتقاليد يتميز بعضها عن البعض الآخر بأمور ألهمها الله سبحانه إيّاها. يقول تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. أما الكائنات الجامدة فهي ذات أرواح، يؤكد ذلك القرآن الكريم وكُتب العقائد والفلسفة، ولكن كيف تكون أرواحها؟علم ذلك عند الله سبحانه الذي يعرف ما خلق، يقول الله سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦] كيف يسجد النجم والشجر لله سبحانه؟ كيف تكون صورة السجود وماهيته؟ يقول بعض

الفلاسفة إنّ سير الكواكب والنجوم في مداراتها ومساراتها المحدّدة لها هو سجودها، وإن عملية النمو الحياتي للنبات من امتصاص المياه إلى اخضرار الأوراق إلى نضوج الثمار هو سجوده.

وفي القرآن الكريم آيات تؤكّد على أنَّ كل شيء في الكون هو في حالة تسبيح لله عز وجل ويلهج بحمده آناء الليل وأطراف النهار، ولكننا لا نفقه ولا نفهم هذا التسبيح وصورته وطريقته يقول الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾ [ص: ١٨].

إنَّ الكثير من أسرار الكون لم نتعرف عليها بعد، وقد نفهمها في المستقبل، ولكن الذي يهمنا في الوقت الحاضر هو كيف يجب أن تكون علاقة الإنسان بالكون؟ وكيف يحقق الانسجام والتوافق الكامل معه؟ إنَّ النقاط التي سنذكرها فيما يلي توضح لنا بعض الأمور حول علاقة الإنسان مع الطبيعة، وتضع أيدينا على الطرق التي تكفل انسجامنا الكامل مع الكون واستثمارنا الصحيح للطبيعة وثرواتها الدفينة».

١ - إنَّ التفكير الدقيق في الكون والتأمل في مخلوقات الله سبحانه، يجب أن يؤدي بنا إلى تجاوز ظواهر الأشياء ومحاولة الوصول إلى الهدف الحقيقي الذي من أجله خلق الله الكون والحياة... يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [يونس: ١٠١]. «لا بد إذن من أن يتفكر الإنسان فيما يشاهده في الأكوان من دلالات على وجود الله، يقول ابن عطاء الله الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار. ويوضح لنا ابن عباد الرندي معنى هذه الحكمة قائلاً، الفكرة التي ألزمها العبد وحضَّ عليها هي سير القلب في ميادين الأغيار فقط، وهي مخلوقات الله ومصنوعاته»[1]. إنَّ التفكر

(١) عالم الفكر م١ العدد الثالث ص١٣٤.

الحقيقي يجب آن ينصبَّ على مخلوقات الله التي تمثل آيات عظمته، وإن هذا التفكير يقودنا إلى الإيمان بالله والتعرف الحقيقي على عظمته وقدرته وعلمه الواسع وحكمته وتدبيره، وحينما نؤمن بالله إيماناً قوياً راسخاً، فإنَّ الله يدعونا إلى طاعته وعبادته والسير وفق تعليمات الإسلام التي فيها صلاحنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة.

٢ - يجب أن نعلم أنَّ الإنسان هو محور هذا الكون وهو خليفته على أرضه، والطبيعة خُلقت من أجله وسُخّرت من أجل سعادة البشرية كلّها. . فعليه أن يسعى بجدٍ وثبات وبصورة صحيحة وقويمة لاستثمارها وتسخيرها لخدمة البشرية والاستفادة الكاملة من خيراتها الظاهرة، ومن كنوزها التي لم تكتشف بعد. إننا يجب أن نحدّ من عبث المجرمين الذين يسيئون إلى الطبيعة بتدميرها وتلويثها والعبث بها، مما يؤدي إلى خسارة الإنسان للطبيعة صحياً واقتصادياً وحياتياً، فالكثير من الحيوانات قد انقرضت والكثير من الأشجار والغابات دُمّرت، وقد تلوث الهواء في بعض البلدان إلى حدٍّ لا يُطاق، ممّا أثر على صحة الناس وأدّى إلى وفيات البعض منهم. إننا إذا لم نتدارك هذا الأمر فإنَّ جمال الطبيعة ورونقها وصفاءها وخيراتها سيزول وسيندثر الإنسان معها.

٣ - إنَّ المعرفة الحقيقية للكون تحفزنا لالتزام القيم الأخلاقية تجاهه، وتوجيه العلم توجيهاً أخلاقياً حتى لا ينحرف العلم عن مساره الصحيح، وهو خدمة البشرية. إنَّ العلم يسير في بعض الدول سيراً لا أخلاقياً، ويتجه نحو تدمير الأرض والإساءة إلى البشرية، وذلك باختراع الأسلحة المدمرة والجرثومية، التي تهدّم بنيان الأرض وبدن الإنسان وتحطم نفسيته ومعنويته، إنَّ الكون كله يجب أن يعيش حالة الحب الحقيقي النابع من حبّ الله ورحمته التي تغمر الكون كله، ومن هذا الحب ومن هذه الرحمة يجب أن ينطلق العلماء في اكتشافاتهم واختراعاتهم بما

يحقق الخير والنفع للإنسانية كلّها، إنَّ التعامل الأخلاقي مع الكون والطبيعة يحقق أفضل صور الحياة السعيدة لنا وللأجيال القادمة.

٤ - إنَّ تأملنا للكون وتفكيرنا في مخلوقات الله، يفيدنا في أخذ العبر والتجارب والمواعظ لحياتنا اليومية وأفكارنا العملية، وقد ضرب الله سبحانه الأمثال الكثيرة من الطبيعة ومن مخلوقاته سبحانه المتنوعة في الألوان والمختلفة في الصور والأشكال من النباتات والحيوانات والحشرات وغيرها... وهذه الأمثلة عديدة وكثيرة جداً يذكرها الله لنا للموعظة والعبرة وأخذ الدروس والتجارب منها وللتفكر في عظمة الله المتجلية في دقة المخلوقات وعظيم صنعها. في الآية التالية يصور لنا الله سبحانه الدنيا وكيف تزول وكيف يفنى الناس ويشبّه ذلك كله بالنباتات وكيف تصبح هشيماً تذروها الرياح: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وفي الآية القرآنية الثانية يصوّر لنا الله سبحانه محمداً ﷺ والمؤمنين معهُ وحالة التراحم بينهم، وحالة الشدة والغلظة تجاه الأعداء كزرع قوي عودُه وحَسُنَ منظرُهُ، فأصبحت قوة شكيمتهم تخيف الأعداء وتُدخل الغيظ والرُعب في قلوبهم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]. ويشبه لنا الله سبحانه الذين كفروا ببيت العنكبوت الذي يَقتُل بعضهم بعضاً بحيث يهلك الجميع: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، ويشبّه الله سبحانه ضعف الطواغيت الذي يُعبدون من دون الله بأنّهم لا يستطيعون صنع ذبابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟

لَهُۥۖ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]، ويلفت سبحانه نظرنا إلى النحل وطريقة معيشته: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]. ويقول سبحانه في وصف الجبال: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ [النمل: ٨٨].

وآيات عديدة أخرى تثبت عظيم قدرة الله وبديع صنعه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [الأنعام ٩٥].

٥ - إنَّ هذا الكون إلى نهاية، والطبيعة إلى زوال، وإنَّ هذا التناسق العجيب في الطبيعة سيختل، وإنّ هذه السنن والقوانين التي تتحكم في الكون ستتعطل، هذه حقيقة ثابتة يؤكّدها القرآن الكريم، ويؤيدها العلم الحديث الذي يعتقد بفناء الكون ونهايته. يقول سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ويقول تعالى: ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. إن نهاية الكون هو بداية القيامة التي تشهد مناظر غريبة ومذهلة، إن هذه الوقائع الشديدة تبدأ بالتأثير على الطبيعة وبالتالي تؤثر على الناس، ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ [التكوير: ١]، ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١]، ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ١ - ٥]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ [الانفطار: ١ - ٥].

حينذاك تُطوى هذه الحياة الدنيا وتزول بكل زخارفها وملذاتها،

وتبدأ حياة جديدة سرمدية، تلك الحياة يصنعها الإنسان الآن ويحدّد مصيره بنفسه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].. وفي الحديث الشريف: «الدنيا مزرعة الآخرة».

* * *

الإنسان في الإسلام

يعتبر الإنسان ركيزة الحياة وأساس الحضارة ومنطلقها، وكلّما تقدمت الدراسات والبحوث في فهم الإنسان ومعرفة احتياجاته وغرائزه، وعلاقته مع الكون والطبيعة، فإنَّ هذه الدراسات ستكون مشاريع ناجحة في البناء الحضاري والتقدم الاجتماعي، وفي أثناء المسيرة الحضارية التكاملية لأيّ مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم، لا بدَّ من النظر إلى الإنسان من جميع جوانبه المادية والمعنوية، ومراعاة ذلك كلّه، ووضع كل مستلزمات التقدم والمدنية من أجل تلبية حاجاته الفعلية والواقعية، جاء الإسلام إلى البشرية وأهم مرتكزاته هو الإنسان وكيفية إسعاده، وضرورة تربيته وتغييره، وأشارت أوّل سورة قرآنية نزلت على النبي محمد ﷺ إلى خِلقة الإنسان وأهمية تربيته وتعليمه ليتغير جذرياً، ويتغلغل الإسلام في أعماق نفسه ليتغير العالم من حوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]. وأصبح مدار التشريع الإسلامي يدور حول الإنسان وما يُحيط به من أشياء حيّة متحركة، أو جامدة صمّاء لا حراك فيها، يولد الإنسان طفلاً ويفتح عينيه على من حوله بتطفل وذهول، ويحاول التعرف بشغفٍ كبير على هذا الكون الفسيح الذي نزل ضيفاً جديداً عليه ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فيجد الإسلام قد أعدَّ له العدّة وهيأ له كل مستلزمات الحياة السعيدة، فوضع له تصوراً كاملاً وشاملاً عن الحياة

والكون، وبيّن له موقعه في هذا الكون، وحدّد له هدفه في الحياة، وأعطاه منهجاً حياتياً ربانياً متكاملاً، ينقذ به نفسه أوّلاً، ثم يمدّ يد المحبة والأخوّة لكل البشرية لترفل بالسعادة والهناء وترتشف من رحيق الإسلام نوراً وهداية ورشاداً، لا ملل في هذا المنهج الرباني ولا ضياع، ولا نكوص إلى الوراء ولا تخلف يصيب البشرية إنْ هي وعت التصور الإسلامي للحياة واستوعبته وعزمت بجدٍّ واخلاص على تطبيقه.

هذا البحث يتطرق إلى محاولة معرفة الإنسان معرفة حقيقية، ويحاول أن يعرّفه تعريفاً شاملاً، ويشخّص طبيعة النفس البشرية من مختلف جوانبها، ويعتمد على ذلك كلّه في تحديد موقع الإنسان في الكون والهدف الذي خلق من أجله، وأهم واجباته في حياته الدنيا.

من هو الإنسان؟: قبل التحدث عن أيّ شيء لا بدَّ من تعريف هذا الشيء تعريفاً علمياً يحدّد أبعاده وجوانبه ليمكن بعد ذلك استخراج النتائج العلمية والواقعية حول هذا الشيء والإنسان كذلك لا بدّ من تعريفه تعريفاً علمياً ليمكن بعد ذلك سلوك المنهج الصحيح للوصول إلى النتائج الحقيقية في تحديد موقعيته بالنسبة إلى الكون وهدفه في الحياة.

«عرّفه فلاسفة اليونان القدماء وكثير من فلاسفة المسلمين الذين قفوا أثر فلاسفة اليونان، كالفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم ـ الإنسان ـ بأنّه: حيوان ناطق، أو حيوان متكلم، أو حيوان مفكر... وعرّفه علماء الأخلاق بأنه الحيوان الأخلاقي أو المخلوق ذو النزعة الخلقية أو المسؤول خلقياً، أو ذو الأفعال الإرادية، أو ذو القصد والنية في أعماله، أو الذي يحمل أمانة الاختيار الإرادي، أو هو المخلوق القادر على السيطرة على نزواته وشهواته وعلى ضبط دوافعه وعلى إعلائها والسمو بها وإبدالها، وعرّفه علماء الاجتماع والاقتصاد وذوو الاهتمام بنشأة وتطور الثقافات والحضارات بأنه الحيوان الاجتماعي، أو ذو النزعة الاجتماعية أو ذو الاستعداد لصنع ثقافة وحضارة، أو هو الحيوان التقني الصانع الذي يصنع

التقدم ويُثري الحياة التي حوله، وعرّفه علماء اللغة بأنّه الحيوان الرامز أو القادر على استعمال الرموز، وعلى الأخص الرموز اللغوية، أو هو الحيوان القادر على استعمال اللغة، وعلى وضع المصطلحات لما يوجد حوله من أشياء وعلى تسمية الأشياء لتمييز بعضها عن بعض»[1]. وخلص بعضهم إلى أنَّ «الإنسان هو ذلك الحيوان الناطق القادر على الكلام وعلى استعمال اللغة كأداة للاتصال الواعي والتفكير، وعلى وضع المصطلحات وتسمية الأشياء لتمييزها والتصرف فيها، وعلى التفكير الإرادي الواعي، وعلى اتخاذ العالم الواقعي المحيط به موضوعاً لإدراكه وتفكيره وتفسيره وإبداعه، ومكاناً لنشاطه لإحداث التغيرات المرغوبة فيه، وعلى التعلّم واكتساب معارف ومهارات واتجاهات جديدة باستمرار، وعلى الإيمان بالغيب، وعلى التمييز بين الخير والشر، وعلى كبح شهواته ونزواته، وعلى تصور الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق هذه الغاية وعلى تجاوز الواقع من أجل الاتجاه نحو ما ينبغي أن يكون، وعلى أن يعيش في جماعة ويبني علاقات اجتماعية واعية مع غيره من بني نوعه، وعلى التكيف مع الظروف الاجتماعية المختلفة، ومع الأوساط التي يعيش فيها، وعلى العمل والانتاج والتعمير، وعلى تكوين ثقافة وبناء حضارة، وعلى كشف أستار الظواهر الكونية وتغيير مجراها وإخضاعها لسيطرته»[2] ونستطيع تعريف الإنسان بأنه: ذلك المخلوق البشري الذي جعله الله سبحانه خليفته في أرضه وأمينه على رسالته، ووهبه العقل والتفكير وأودع فيه الغرائز والميول والشهوات ليستخدمها وفق طاعة الله، وأعطاه حرية الإرادة ليختار طريقه بنفسه، ويتخذ مسار حياته ليحاسب بعد ذلك كله يوم القيامة إن شراً فشر وإن خيراً فخير. . .

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي د. عمر محمد التومي الشيباني ص١٤٠ - تونس ١٩٨٧.

(٢) المصدر السابق ص١٤٢.

طبيعة النفس البشرية:

إنَّ أيّ مبدأ لا ينظر إلى واقع النفس البشرية نظرة حقيقية وواعية، لن ينجح ولن يزدهر ولن يتحول إلى واقع حي متحرك على الأرض، بل يبقى نظريات جامدة في بطون الكتب. أمّا المبدأ الذي يعرف مواطن ضعف النفس البشرية ومواقع قوتها، ويضع المفاهيم والخطط والبرامج وفق هذه المعرفة الشاملة، فإنَّ النجاح سيكون حليفه وسيدخل قلوب الناس بسرعة، ويغيّر نفوسهم بيسر وسهولة، وينتشر في بقاع الأرض بسرعة هائلة ويُقبل الناس عليه إقبالاً ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢] وهذا ما حدث للإسلام في بداية انتشاره، وسيحدث معه إذا ما رجعنا إلى ينابيعه الأصيلة، فالله سبحانه خالق الإنسان، عارف تمام المعرفة بما يُصلح البشرية ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. إنَّ هذه النفس بنظر الإسلام فيها قابلية النزوع إلى الخير أو النزوع إلى الشر والسقوط في الحضيض ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. . . والآيات القرآنية التي تتحدث عن ضعف النفس البشرية أو قوتها، عديدة، وتحتاج إلى بحث مفصّل، ولكننا نشير إلى بعضها، قال سبحانه في تبيان ضعف النفس البشرية ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وأشار الله سبحانه إلى حالة العجلة في نفوس الناس ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الاسراء: ١١] وذكر الله سبحانه حبّ الإنسان للمال ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ويصوّر القرآن الكريم حالة الفزع التي يمرُّ بها الإنسان حينما تحلُّ به الشدة أو المصيبة ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، ويعرض لنا القرآن الكريم موقفاً مثيراً لبعض الناس في وقت الحرب حيث يسيطر الخوف والهلع على نفوسهم، وأمّا في وقت السلم والرخاء فلا

يوجد أشرّ منهم ولا أقذع ولا ألذع من لسانهم ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٩]. . . وهناك آيات أخرى عديدة تمثل حالات الضعف الإنساني. . . أمّا حالات القوة في النفس الإنسانية ولدى الشخصية الإسلامية بالذات فهي كثيرة أيضاً يقول الله سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] ويقول سبحانه في وصف المؤمنين الذين آثروا غيرهم على أنفسهم ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] ويشير سبحانه إلى ضبط النفس والسيطرة عليها وكبح شهواتها ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وغيرها من الآيات القرآنية.

وللشخصية الإسلامية أبعاد وجوانب متعددة، تسير وفق تنسيق رائع يكمل بعضها الآخر، فتثمر الإنسان المسلم السّوي المتكامل الذي يشع على الكون والحياة محبّةً وعطاءً، ولا بدَّ من إكمال هذه الجوانب بالتنمية الإيمانية والتربية المستمرة، ليصبح الإنسان المسلم على وعي تام من دينه، يملك التصورات الواضحة عن الحياة وفق رؤية إسلامية سليمة، ويختط بعد ذلك مسيرة حياته، وينهج النهج الإسلامي في علاقته مع ربه ومع نفسه ومع الناس، وهذه الأبعاد هي:

١ - البعد الفطري في الجسم والوجدان والعقل والإرادة: لقد أولى الإسلام اهتماماً كبيراً بصحة الجسم وقوته، ووضع المفاهيم والبرامج العديدة في تنمية الحس الوجداني والعاطفي لدى الإنسان المسلم، كحب الله وحب المؤمنين، والدعاء، والخوف من الله والتضرع إليه، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦]، واهتم الإسلام بالعقل ودعا إلى استخدامه استخداماً صحيحاً في فهم

الأشياء، ووضع الأساليب والطرق الناجحة لصونه عن الخطأ والاشتباه، وقام الإسلام بتنمية قوة الإرادة في نفسية الإنسان المسلم، وبثَّ روح العزم والتصميم في قلبه، والآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه المعاني السامية كثيرة جداً نشير إلى بعضها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

إنَّ الشخصية الإسلامية شخصية قيادية ريادية ثابتة الجأش لا تهزها عواصف الحياة الهوجاء ولا نكبات الدهر ولا تغيّر الأحوال.

٢ - البُعد الكوني: يشمل موقع الإنسان المسلم من هذا الكون، علاقته مع الطبيعة، هل هي علاقة عداء وصراع، أم هي علاقة تكامل وانسجام؟! كل ذلك حدّده الإسلام وأوضح للإنسان المسلم موقعه ومكانته في هذا الكون الرحيب.

٣ - البُعد الزمني: تساءل الإنسان قديماً وإلى الآن، عن بداية الكون وعن خلق الإنسان وعن نهاية العالم وكيف ستكون؟ ما هو دور الإنسان منذ ولادته وحتى وفاته؟ وما هو دور البشرية بصورة عامة على الكرة الأرضية حتى قيام الساعة؟ هذه التساؤلات قد أشبعها الإسلام بحثاً وتفصيلاً، وأشارت إلى ذلك الآيات القرآنية العديدة، ونقلت كلام المشركين وتساؤلاتهم وشكوكهم وردود الإسلام المفحمة عليهم.

٤ - البُعد الاكتسابي: ويشمل التعامل مع البيئة المادية والبيئة الاجتماعية، كيف يستكمل المسلم شخصيته؟ وكيف ينمي خبرته العملية؟ كيف يكتسب المؤمن معارفه وعلومه؟ كيف يتعامل مع الناس بصدق ورأفة

وذوق حضاري منقطع النظير؟ كيف يكون مفهوم الفرد والمجتمع؟ كيف تتحقق الأخوّة الحقيقية؟ كل ذلك وضع له الإسلام المفاهيم والأساليب العديدة التي تُوصل المسلم إلى مدارج الرقي والكمال.. نجد ذلك كله مبثوثاً في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة والفقه الإسلامي، ولها مصاديق عديدة في تاريخنا الإسلامي الزاهر.

كلّما استطاع الإنسان المسلم أن يفهم هذه الأبعاد ويطبقها على واقع حياته، فإنه سيكون إنساناً حضارياً فذّاً، وكلّما استطاع أهل العلم والذكر والإصلاح إفهام الناس هذه الأبعاد وتبيانها لهم، فإنّهم سيؤثرون بهم ويغيّرونهم وسينقلونهم إلى عالم الإسلام نقلة نوعية حضارية، ويصنعون منهم شخصيات إسلامية عظيمة تحمل القوة في الدين، والصلابة في اليقين، والقدرة الفائقة في تحدي الصعاب وتجاوز العقبات.

أهداف الإنسان في الحياة:

لكل إنسان هدف في الحياة يحلم به ويطمح لتحقيقه ويكدح للوصول إليه، والإنسان المسلم إنسان كادح للوصول إلى مرضاة الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. وأهم هدف في الحياة، هو هدف الإنسانية كلها، هو الهدف العظيم الذي خُلقت البشرية من أجله، وقديماً تساءل الإنسان ولا يزال يتساءل: لماذا خُلقت؟ ولماذا خلق الله الكون والحياة؟ وما هو هدفي في الحياة؟ وما هي الواجبات التي يجب عليَّ أداءها خلال فترة حياتي؟ وماذا يحدث لي بعد الموت؟ وما هو مصير البشرية؟.

يمتاز الإسلام بأنّه يملك نظرة شاملة عن بداية الحياة وعن خلق الإنسان، ويُعطي تصورات واضحة لأهداف المسلم وواجباته في الحياة،

ولا يكتفي الإسلام بذلك، بل يتدخل في أمور المسلم قبل ولادته، وحتى بعد وفاته، فيشير الإسلام إلى الأمور التي ينبغي أن تُراعى قبل ولادة المسلم، ثم يفصّل الإسلام كثيراً حول مرحلة الموت وما يتبقى على الإنسان من تبعات بعد وفاته... ويحدثنا القرآن الكريم كثيراً عن أهوال يوم القيامة، وعن عذاب جهنم، وملذّات الجنة ونعيمها. وبعد أن يعرض الإسلام الحقيقة الكونية كما هي بوضوح، يُعطي الإنسان المسلم المفاهيم والتصورات والقيم التي يتعرف بواسطتها الإنسان على حقائق الأشياء، وكيف يتعامل مع هذه الحقائق، وكيف يؤمن بالقيم الإسلامية ويتمثّلها واقعاً حيّاً في سلوكه، وهذه الحقائق والقيم عديدة مثل الحقيقة والحق والحرية والعقلية والواقعية والخلقية والتكاملية. إنّ «الإنسان جزء من هذا الكون، شأنه في ذلك شأن كل مخلوقات الله الكثيرة فيه، إلاّ أنه يتخذ من الأرض مقرّاً له، وقد كان خلق الإنسان من طين - هو طين الأرض - والإنسان بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذي يعيش فيه، ذرّة تائهة لا مستقرّ لها ولا قيمة، وعمره بالقياس إلى المدى الهائل من الأزل إلى الأبد، ومضة برق، أو غمضة عين، ولكن هذا الفرد الفاني، هذه الذرة التائهة، هذا اللقي الضائع، يملك في لحظة، أن يتصل بقوة الأزل والأبد وأن يمتدّ طولاً وعرضاً في ذلك الكون الهائل»[1]... ولكن ما هو موقع الإنسان في هذا الكون؟ وكيف تكون علاقته مع الطبيعة؟ وكيف يكون تعامله مع الكائنات الأخرى؟ وباختصار شديد ما هو الموقع الكوني الذي يريده الله سبحانه للإنسان: «إنَّ النظرية الإسلامية للإنسان تجعل الإنسان يمثّل العنصر أو المخلوق الذي جُعلت الحياة كلّها تتحرك في مداره كما جُعلت الآخرة كلها تتحرك في مداره. فالحياة للإنسان، والجنة للإنسان، والنار للإنسان، والملائكة يحملون رسالة الله للإنسان، والملائكة يستقبلون الإنسان، والكون مسخّر للإنسان، الشمس مسخّرة للإنسان

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي - الأصول والمبادىء ص١٢٧ - تونس ١٩٨٧م.

والقمر مسخر للإنسان وكل القوانين الكونية مسخرة للإنسان، إذا معنى ذلك أنّ الإسلام ينظر للإنسان على أساس أنه - من خلال رعاية الله له - هو مركز الكون والعنصر الذي يدور الكون في دائرته وعلى هذا الأساس فإننا لا نجد في كل المواقع الحضارية أية فرضية حضارية، إذا صحّ التعبير، يمكن أن تعطي الإنسان هذا المفهوم الشامل الكامل»[1].

هدف الشارع من خلق الإنسان:

خلق الله سبحانه الإنسان على أكمل صورة، وخلق الكون حوله في تنسيق رائع ودقيق ولكن «ما هي مكانة الإنسان الحقيقية في هذه الدنيا؟ وما هي نوعية ما يوجد بين الإنسان وهذه الدنيا من العلاقة وأنَّ الإنسان إذا استخدم هذه الدنيا وتصرف فيها، فعلى أيّ وجه وبأيّ اعتقاد عليه أن يستخدمها ويتصرف فيها؟ وهو [الإسلام] يفتح عينيَّ الإنسان إذ يقول له: إنك لست كأحدٍ من المخلوقات بل أنت الخليفة المسؤول لرب العالمين على وجه الكرة الأرضية، قد سخرت لك الدنيا بكل ما فيها من القوى والوسائل فأنت الحاكم للجميع والمحكوم والمنقاد لذات الله الواحد القهّار، وإنَّ لك فضلاً على سائر المخلوقات ولكنك لا تستحق الكرامة والشرف الحقيقي إلاّ بأن تكون على الطاعة للذي قد فضّلك على العالمين، بجعلك خليفته وبأن تمتثل أوامره وتقف عند حدوده. وإنك ما بعثت إلى الدنيا إلاّ لتتصرّف فيها وتتمتع بخيراتها. ثم إنَّ الأعمال الصالحة أو السيئة التي تعملها في حياتك الدنيا هذه، هي التي ستترتب عليها النتائج الحسنة أو السيئة والثمرات المرضية أو غير المرضية التي ستنالها في حياتك الآخرة فمن واجبك أن تكون في كل لحظة من لحظاتك في هذه الدنيا على شعور تام بتبعتك الشخصية، ومسؤوليتك الذاتية، ولا تغفل

(١) المشروع الحضاري الإسلامي السيد محمد حسين فضل الله ص٧٧ مؤسسة العارف بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩١م - ١٤١١هـ.

طرفة عين عن أنَّ الله سيحاسبك حساباً دقيقاً على ما ائتمنك عليه من حيث أنت خليفته ونائب عنه في هذه الدنيا»[1]. نستطيع أن نجمل الأهداف التي من أجلها خلق الله الإنسان بما يلي:

١ - **عبادة الله**: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهي العبادة بالمعنى العام التي تشمل كل عمل يقوم به الإنسان طاعة لله، وتنطلق هذه العبادة من الاعتقاد الكامل بأنَّ الملك لله وحده، لا يشاركه في ذلك شريك ولا ينازعه أحد في ملكه ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وما يستلزم هذا الاعتقاد من الخضوع المطلق لله وحده، فالإيمان بوحدانية الله سبحانه وقدرته المطلقة والانقياد له والاستسلام الكامل له، وتجسيد ذلك كله بعبادته عز وجل العبادة الحقة، هذه العبادة هي هدف عظيم خُلق الإنسان من أجله ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

٢ - **الخلافة في الأرض**: يقول سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. استخلاف الله للإنسان في الأرض للعبادة والعمارة والتثمير، وهو هدف عظيم للإنسان في حياته الدنيا، بأن يكون خليفة الله سبحانه على الأرض، وهو منصب عظيم ومسؤولية كبرى يجب أن يكون الإنسان أهلاً لذلك الشرف العظيم، والاستخلاف في الأرض نوعان:

أ - الاستخلاف العام: هو استخلاف كل البشر في الأرض ليعمروها قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

---

(١) الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها - أبو الأعلى المودودي ص٤٥ ط٢ بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م - ترجمة محمد عاصم الحداد.

ب - الاستخلاف الخاص: وهو استخلاف الحكم والولاية على الناس.

ولكي تتم الخلافة على الوجه المطلوب، ويقوم الإنسان بواجباته على أكمل وجه لا بدَّ من توفر الأمور التالية:

١ - اكتمال الإنسان من الجانب العقلي والجانب الروحي والجانب المادي، فالإنسان عقل وروح ومادة، ولا بدَّ من إشباع العقل بالعلم، وإشباع الروح بالعبادات، وإشباع الجسم بالغذاء الصحي المشروع. ويجب إشباع الغرائز الأخرى لدى الإنسان وفق أصول الشريعة الإسلامية.

٢ - تسخير الطبيعة وكل ما فيها من كائنات حية، أو ثروات طبيعية لخدمة الإنسان ومصلحته وسعادته ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

٣ - معرفة الإنسان بواجبات الخلافة: وهي أن أوّل واجب على النائب أن يقرّ بسيادة من هو نائب عنه وبسلطته العليا، وأن يعرف ثانياً أن منزلة الإنسان من حيث هو نائب عن الله وخليفته في الأرض أعلى وأشرف من منزلة كل شيء في السموات والأرض، وعليه أيضاً أن يسلك الطريق الصالح بحكم تصوره للخلافة والنيابة، وأخيراً في أنَّ النيابة عن الله عز وجل ليست محصورة بفرد أو بطائفة من البشرية وإنما هي للجنس البشري بمجموع أفراده وطوائفه.

٣ - تبليغ دستور الخلافة للإنسان بواسطة بعث الأنبياء عليهم السلام وإرسال الرسالات: وذلك لتعريف الإنسان بعظمة الله وقدرته ورحمته التي وسعت كل شيء، ولتوضيح أمور الإنسان الحياتية ليعمل بموجبها وأهمها:

أ - الاعتقاد بأنَّ الدنيا وسيلة لا غاية.

ب - الاعتقاد بتوجيه النشاط الاقتصادي في مرضاة الله.

ج - الاعتقاد بأنَّ المسلمين جميعاً أخوة.

ماذا يريد الإسلام من الإنسان؟

وأخيراً ماذا يريد منّا الإسلام؟ وكيف ينبغي أن نكون؟ وما هو الإنسان النموذجي والحقيقي والمتكامل بنظر الإسلام؟ تطرق إلى ذلك الكثير من المفكرين وحدّدوا في نقاط معينة صورة الإنسان المسلم المثالي نذكر منها:

«**أولاً**: إنسان يؤمن بالله إيماناً عميقاً وخلاّقاً، متخذاً إيّاه مثله الأعلى للكمال، وملتزماً بأن تكون حياته معراجاً لهذا الكمال.

ثانياً: إنسان يؤمن بالحقيقة باحثاً بحثاً لا نهائياً عنها كضالة منشودة، بنفس تفتحه لما اهتدى إليه الآخرون من طرق متنوعة للاقتراب منها.

ثالثاً: إنسان تغمر المحبة علاقته بالكون وبكل إنسان آخر.

رابعاً: إنسان يؤمن بحريته وحرية كل إنسان، ويصون كرامته وكرامة كل إنسان، ويقدّس حقّه في الحياة وحق كل إنسان.

خامساً: إنسان يؤمن بالعقل إيمانه بالله، ويشعر بطمأنينة التكامل لا بقلق التنازع بين إيمانه وعقله.

سادساً: إنسان يؤمن بمسؤولية الإنسان في اكتشاف كونه وتنظيم مجتمعه، ويوقن أنَّ هذه المسؤولية هي أمانة الله الكبرى للإنسان.

سابعاً: إنسان يؤمن بحرمة الذات الإنسانية الفردية، ويعتقد بأنَّ غاية كل تنظيم اجتماعي تفتيح إمكانات هذه الذات الخيرة والمبدعة»[1].

---

(١) الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية - حسن صعب ص٣٠ الطبعة الأولى =

ويرى مفكر إسلامي آخر أن أهمّ أهداف وواجبات الإنسان في الحياة هي:

١ - أن ينال معرفة صحيحة بالله تبارك وتعالى.

٢ - وأن لا يرى في أحدٍ غير الله آمراً ولا ناهياً ولا حاكماً ولا مطاعاً على الإطلاق ويجعل حريته الذاتية تابعة لأحكامه تعالى.

٣ - وأن يتعرف على الطرق والوسائل التي يستطيع بها أن ينال مرضاة الله، ثم لا يقضي كل حياته إلاّ تبعاً لها والتعرّف عليها.

٤ - وأن يتعرف على ثمرات مرضاة الله وعواقب عدم مرضاته حتى لا يغتر بالنتائج الناقصة الظاهرة لأعماله وأقواله في هذه الحياة الدنيا[1].

وباختصار فإن الإنسان المسلم هو الذي يعرف معرفة واضحة مَن خلقه، ولماذا خُلق، وينهج النهج الإسلامي القويم ليحقق طاعة الله على أفضل وجه وأكمله، الإنسان المسلم يعبّد نفسه لله ويروّضها دائماً للسير في الطريق الصحيح، ويعبّد الناس لله تعالى بالحجة والإقناع والدليل، إنسان يرى أن سعادة الآخرين سعادته وشقاءهم شقاءه، جوعهم جوعه، وشبعهم شبعه، وفي الأخير يجب أن يكون إنساناً مسلماً وكفى.

= ١٩٦٥م دار الآداب بيروت.

(١) الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها - أبو الأعلى المودودي ص٢٨٤.



الباب الثاني

مفهوم عام عن:

القيم الحضارية الإسلامية

مفهوم عام عن:
القيم الحضارية الإسلامية[1]

إن موضوع القيم بالنسبة للإنسان المسلم، موضوع مهم وحساس إلى درجة كبيرة جداً، حيث يتداخل هذا المفهوم في تكوين شخصيته والتغلغل إلى أعماقها وصياغتها صياغة جذرية ينطلق من خلالها إلى تغيير العالم من حوله، ليتكون بذلك المجتمع الحضاري الإسلامي المنشود الذي يحقق السعادة للبشرية كلها.

وبقدر ما هو حساس ومهم، فهو أيضاً موضوع متشعب الأطراف بعيد الأغوار، كثير الجدل حوله، وتعددت الآراء حول جدية الالتزام بهذه القيم ومقدار أهميتها، ومدى أبعادها وآثارها، وقبل الدخول في تفاصيل الموضوع، وبيان أهميته، لا بدّ لنا أن نعرّف هذا المفهوم تعريفاً اصطلاحياً دقيقاً، واستشراف الآيات القرآنية الكريمة واستكناه المفاهيم الإسلامية التي تدور حول مفهوم القيم، ونتطرق إليها من بعيد أو قريب.

القيم لغة:

يعطي المعنى اللغوي لكلمة «القيم» دلالات متعددة، يصب أغلبها

---

(١) نشر في نور الإسلام ـ العدد ٦٥ ـ ٦٦، السنة السادسة.

في المفهوم العام للقيم، فهو يعني الشيء المستقيم والثمين، والجميل، والحسن في كل شيء، والتمسك به والمحافظة عليه، والعزم على تطبيقه، يقول ابن منظور: «القائم بالدين: المستمسك به الثابت عليه.. وكل من ثبتَ على شيء وتمسّك به فهو قائمٌ عليه، قال تعالى: ﴿ ۞لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣] إنما هو من المواظبة على الدين والقيام به.. القيمة: ثمن الشيء بالتقويم، وفي الحديث، قالوا: يا رسول الله أو قوّمت لنا، فقال ﷺ: الله هو المقوّم، أي لو سعّرتَ لنا، وهو من قيمة الشيء، أي حددت قيمتها.. أمرٌ قيّم: مستقيم.. الملّة القيّمة: المعتدلة والأمّة القيّمة كذلك»[١]. «إن كلمة قيمة في اللغة العربية تشتق من القيام، وهو نقيض الجلوس، والقيام بمعنى آخر هو العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣٤]، ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات... وأما القوام فهو العدل، وحسن الطول، وحسن القامة.. والقيمة في اللغة واحدة القيم، وهي ثمن الشيء بالتقويم، وقوّم السلعة واستقامها: قدّرها»[٢].

القيم اصطلاحاً:

اتخذ مصطلح القيم معنًى ثابتاً في مجال المفاهيم والمصطلحات الحديثة، وتطوّر المدلول العام للمصطلح فاتخذ أبعاداً محددة، له قواعده وأسسه وفروعه وتفاصيله التي تشمل حياة الإنسان المسلم في كافة مناحي حياته الفردية والاجتماعية، تطوّر هذا المفهوم عند الاستعمال من «مجال الاقتصاد إلى مجال الاجتماع وارتبط منذ اليوم الأول باسم الخير والخير الأسمى، واعتبر الفلاسفة القيم في صميمها إنسانية، ومندمجة في السلوك

(١) لسان العرب لابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم بن منظور الإفريقي المصري - دار صادر، بيروت، تاريخ الطبع لا يوجد.
(٢) الفكر التربوي العربي الإسلامي عادل العوا، ص٢١٦.

الإنساني نفسه، فهي ليست مجردة مستقلة في ذاتها ولا منفصلة عن الإنسان نفسه، بحيث يتخذ من سلوك الفرد دليلاً على القيمة التي يؤمن بها»[1].

والقيمة هي «تفضيل أمر على أمر، أو سلوك على سلوك، وهذا التفضيل يستمد مبدأه من تطلّع أمثل يكون هو الحقيقة في مجال المعرفة والعلم، والخير في مجال العمل والتصرف، والجمال في مجال التقدير والانفعال»[2]، فالقيم هي المبادىء أو المثل التي يؤمن بها الناس، ويقتنعون بها ويلتزمون بها ويدافعون عنها، ويضحون من أجلها، وهذه المبادىء تكون مشرّعة من قبل الله سبحانه لأجل خير البشرية، أو أنها من الأمور التي يتفق على صلاحها الناس، ويجعلونها هدفاً سامياً لهم، ويقرّهم على ذلك الشرع والعقل.

وقد وردت كلمة «القيم» في القرآن الكريم في آيات متعددة تعطي أهمية كبيرة للقيم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣]، ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]. إن القيم هي التي تحثنا على إيقاظ مزيد من الضمائر، أو تحفزنا على طلب مزيد من الحقيقة، أو استشفاف مزيد من الجمال، وهذا هو أصل ثالوث القيم الأساسية المتصلة بفاعليات العقل والأخلاق والجمال[3].

(١) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، أنور الجندي - سلسلة البحوث الإسلامية، العدد (١٥) ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، ص٢٩.
(٢) الفكر التربوي العربي الإسلامي، د. عادل العوا، ص٢٤.
(٣) الفكر التربوي العربي الإسلامي، د. عادل العوا، ص٢٢٠.

أنواع القيم

القيم أنواع متعددة، فمنها القيم الاجتماعية والقيم الاقتصادية والقيم الأخلاقية وغيرها، وتعدد القيم نابع من مظاهر الحياة المختلفة التي تحيط بالإنسان المسلم، والتي تتطلب منه رؤية واضحة وموقفاً محدداً يتحمل من خلال هذه القيم ويختط مسيرة حياته من خلال تصوراتها وأبعادها، «عرّف رويس الولاء بأنه قيمة إخلاص شخص لقضيته إخلاصاً طوعياً وعملياً غير مشروط، فالولاء الوطني مثلاً يحمل الإنسان على أن يحيا وأن يموت عند الاقتضاء من أجل بلده، وهناك ولاء ديني لدى الشهداء في سبيل الدين، وولاء مهني لدى الربّان الذي يضطلع بمسؤولية قيادته لإنقاذ سفينته وكل من فيها حتى آخر نسمة، ويكون هو آخر من يغادرها، أو يكون متأهباً للغرق معها... والولاء الأسري، والولاء الاقتصادي، والوطني، والديني، كل ذلك ينجم عن واجب التضامن، وتصدر عنه سبل التعاون ونظم التكافل، وبها تتحقق قيم منشودة كالعدالة والإنصاف والسماحة والرفعة والنجدة ومحبة الإنسان»[(١)].

إن القيم الإسلامية في مجال الاقتصاد كثيرة، تتدخل في الجانب الفردي للإنسان والجانب الاجتماعي للناس، فأعطى الإسلام قيمة كبيرة للعمل، وجعله باباً من أبواب الملكية، وطلب الإسلام من الإنسان أن يعيش بكدّ يده وأن لا يكون طفيلياً يستغل جهود الآخرين، ثم إنّ الإسلام وضع قيماً عديدة في مجال التكافل الاجتماعي والضمان الاجتماعي، والنظرة الحقيقية إلى المال وكيفية التصرف به، ونظرة الإسلام إلى الغني ونظرته إلى الفقير، وموقف الإسلام من الربا والاحتكار والإنفاق والإسراف والبخل... وغيرها من المفاهيم المبثوثة في كتب الفقه والاقتصاد الإسلامي.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢٣.

أمّا في المجال الاجتماعي فقد يصعب إحصاء القيم الإسلامية لتعددها وكثرتها، وحسبنا في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فالرسالة الإسلامية جاءت لخير البشرية ونفعها ورحمة بها، نستطيع القول بأن أعلى قيمة في الإسلام هي: الولاء للعقيدة، لقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فجعلت الآية الكريمة الولاء للعقيدة فوق كل ولاء حتى لو ارتبط هذا الولاء بالأب والأم والعشيرة، ثم تتعدد القيم وتتكاثر في الإسلام كما تتكاثر الورود والأزهار ذات الألوان البهية وذات الرائحة الزكية على الأرض المخضرة بالعشب الأخضر، فالمساواة بين الناس قيمة عظيمة في الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، لا فرق بين الناس إلا بالتقوى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].. ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقوله ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود».. والتقوى قيمة أخرى في الإسلام تتداخل مع مفهوم الأخوّة والمساواة في الإسلام، والأخلاق قيمة إسلامية تقف على ذروة القيم، وقد وصف الله سبحانه رسوله الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]، وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، إذا سمت المجتمعات الإسلامية بأخلاقها فإنها تسمو في طريق التقدم والرقي، وقيمة التراحم والتسامح بين الناس، وقيمة المحبة بين المؤمنين، المحبة التي تنبع من القلوب لتدخل إلى القلوب ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] وقيمة المروءة وهي الوجدان الأخلاقي أو الضمير أو الذمة بشروطها الذاتية، العفة والنزاهة والصيانة، وقيمة ارتباط الضمير بالعلم، إذ لو ترك العلماء

بلا ضمير لدمروا الكرة الأرضية بمن فيها. . وقيمة العدل حيث تشمل العدالة مع النفس ومع الأسرة ومع المجتمع وفي السياسة والاقتصاد وغيرها من مجالات الحياة ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨] وقيمة الخير والحق والجمال والنافع والمقدس وخلاصة الأمر. «إن جماع القيم الأخلاقية يمثل في القيمة الأخلاقية الشاملة، قيمة الخير، قيمة إرادة الخير وفعل الخير، وما برح الناس يختلفون حول تحديد معنى الخير، فمنهم من اعتبره فضيلة شجاعة، أو عدل أو إحسان، أو نظام، أو حبّ، حب للوطن، وحبّ للبشر، ومنهم من أراد اعتباره منفعة أو أثرة أو إيثار»[1].

ثبات القيم الأخلاقية

هل القيم ثابتة أو نسبية؟ سؤال يتداوله الكثير من المفكرين والباحثين. . هل القيم ثابتة منذ الأزل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟ أم أنها تتغير بتغير الأزمان والأحوال؟ أو بتعبير أدق هل هي خاضعة للتطور التكنولوجي والعلمي والحضاري بصورة عامة؟ هل تتغير القيم كلما تغيرت وسائل الحياة المادية وطرق المعيشة فيها؟ قبل الإجابة على هذه التساؤلات، هناك سؤال مهم يطرح نفسه ويكون أساساً لكل هذه التساؤلات: هل لا بدّ لنا من القيم، أم أننا لا نحتاج إليها؟ ولا نشعر بالضرورة للالتزام بها؟ هذه فكرة تتصارع وتدور حول: الانتماء والانتماء، الالتزام واللاالتزام، هل نحن منتمون إلى مبدأ معين أم لا ننتمي إلى أي دين أو مذهب؟ هل نحن ملتزمون بمبدأ أخلاقي أم لا نلتزم بشيء، وتخضع كل الأمور لقناعاتنا الشخصية وأمزجتنا وأهوائنا؟

انقسم الناس أمام هذا السؤال قسمين: منهم من آمن بمبدأ محدد وقيم ثابتة لا تتبدل، ومنهم من أعلن لا انتمائه إلى أي مذهب فكري أو

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي، د. عادل العوا، ص٢٢٧.

سلوك اجتماعي، وقال بنسبية الأخلاق وتغيّرها من حال إلى حال! «إن القول بنسبية الأخلاق وهي نظرية حديثة أنجبتها الفلسفات الوضعية البعيدة عن الله، إنما هي، انتكاسة خطيرة أصابت البشرية في فضائلها ومكارمها، وفي كل ما يحقق إنسانيتها ورفعتها، وقد أدّت هذه النظرية إلى انقلاب خطير في الموازين والقيم، فصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً. . وقد بيّن النبي ﷺ ثبات مجموعة من القيم الخلقية في حديث قال فيه: «أربع من كلام النبيين والمرسلين: لا يدخل رحلك من ليس معك، وإنّ أخاك من صدقك، وأعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، إذا كان ظالماً فازجره وإن كان مظلوماً فانصره، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1].

إننا إذا لم نلتزم بشيء وإذا لم ننتم إلى مبدأ معين فسنغرق في البلبلة الفكرية، وسيتمزق المجتمع بسبب الفوضى الأخلاقية وسيكون الإنسان في هذه الحالة كالسفينة الشراعية في البحر الهائج حيث تتقاذفها الأمواج العاتية إلى نقطة لا تعرف أين هي؟ وقد تقذف بها إلى قاع البحر حيث تتحطم وتتهشم وتبقى جاثمة في قعر المياه إلى أن تتآكل وتزول من الوجود! إن الحياة التي تجعل من الإنسان لحماً ودماً فقط من دون شفافية الروح، لهي أبعد ما تكون عن جمالية الأخلاق، فيتحطم الإنسان وتتفكك كل عرى المحبة والإخلاص من نفوس الناس، فيتعاملون بالقسوة والخشونة وبالدراهم والدنانير بدلاً من الصفاء والنقاء والحبّ والإيثار كما قال الشاعر المتنبي:

ولما صار وُدُّ الناس خبّاً جزيْتُ على ابتسام بابتسام

فحياة كهذه تصبح تملقاً ورياءً ونفاقاً فيموت الإنسان همّاً قبل أن يموت هرَماً! هكذا سيكون مصيرنا إذا ما تخلينا عن المبادىء والقيم وتركنا الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام الأمزجة والأهواء في رفض كل

---

(١) الإسلام والوعي الحضاري، د. أكرم ضياء العمري، ص٤٤، الطبعة الأولى، دار المنارة للنشر والتوزيع، حيرة، السعودية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

شيء وعدم الإيمان بأي شيء.

إن الإسلام يدعو إلى الالتزام عن وعي وبصيرة ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨].. ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣]. فالإسلام يقرر ثبات القيم الأخلاقية لأن مصدرها الدين وهو وحي إلهي يضبط السلوك الاجتماعي للبشر، ويحدد مناهجهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية.

ويجب التفريق هنا بين القيم وبين الأعراف والتقاليد، القيم هي الأفكار والسلوكيات الجميلة والمحببة التي يعتز بها الإنسان ويجعلها مثله الأعلى، وهي باقية وخالدة على مرّ الدهور لأنها أشياء روحية معنوية أخلاقية ترفع الإنسان إلى مدارج الرقي والكمال والأفق الحضاري.. أمّا الأعراف والتقاليد فقد تتغير من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، فعادات العصور الغابرة غير عادات العصر الحاضر، وقد تتغير في المستقبل.. وعادات المدينة غير عادات البادية، وعادات الشرق غير عادات الغرب، ولكن إذا سيطرت هذه العادات وصارت قيماً أو مُثلاً تترسخ في ذهن الإنسان بحيث تخالف القيم الإسلامية الحقة فيجب رفضها والعمل على إزالتها من ذهنية الجيل المسلم ومن سلوكه كما قال الإمام علي عليه السلام: «إذا أضرت النوافل بالفرائض فارفضوها».. وقوله عليه السلام: «لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض»، نعم، إن الإسلام يُراعي التطور الحضاري والاجتماعي للناس، ولا يقف متحجراً أمام أساليب معينة، ومن المعروف أن الفقه الإسلامي يركز على الأهداف والمواضيع والأحكام، ولا يركز على الوسائل والأساليب بشرط أن تكون هذه الأساليب شريفة، لأنه «لا يُطاع الله من حيث يُعصى» كما ورد في الحديث الشريف، فمثلاً الحج واجب ولكن طريق الوصول إلى المناسك في الجزيرة العربية ليس محدداً، وللإنسان المسلم أن يركب الواسطة التي

يختارها ويسلك الطريق الذي يرغبه، وهكذا الحال في كل أمور المعيشة الحياتية للإنسان المسلم من مسكن ومأكل ومشرب وغيرها، وفي صدر الرسالة الإسلامية، أعلنها الإمام علي عليه السلام مقولة واضحة: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[1].

فإذاً القيم شيء والعادات والأعراف شيء آخر، وهناك فكرة تُراود المؤمنين في ديار الغرب، أو في ديار المسلمين حيث تطغى الحياة الغربية فيها بكل مظاهرها وقيمها وعاداتها، هذه الفكرة تبعث بعض الشك والوساوس في نفوسهم حول أحقية هذه القيم الإسلامية، ومدى صدقها أو واقعيتها.. هذه الأفكار تحيط بالمؤمن وتُثقل عليه همومه من شدة الحياة الصاخبة التي تُحيط به ومن كثرة الأناس المنحرفين الذين قد يهزأون من قيمه وأفكاره، ولكن المسلم الذي يمتلىء جوفه أمناً وإيماناً يبقى ثابتاً على دينه، معتزاً برسالته، يطفح الإيمان على وجهه فيُشرق على الآخرين خُلقاً ومحبة وسلاماً... ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. إن المؤمن لا يتنازل عن إيمانه وعن مبادئه ولو قيد شعرة، مهما كان الواقع الذي يحيط بنا فاسداً مادياً إلى أبعد حدود المادية، ولا يعني هذا تجاهل الواقع، والوقوف كالخشبة اليابسة التي سرعان ما تنكسر، بل على المؤمن أن يبتكر الأساليب ويُراعي الظروف، ويُداري الناس بما لا يخلّ ولا يؤثر على شخصيته الإسلامية.

---

(١) نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام، رقم ٢٧٩، رقم ٣٩، المواعظ والحكم.

«العلم»[1]

إنَّ الحديث عن العلم بصورة عامة، والعلم في الإسلام بصورة خاصة، حديث واسع وطويل جدّاً، إذ تميّز الإسلام من بداية ظهوره، وفي أوّل إشعاعات النور التي بعثها على أرجاء الكرة الأرضية، بتمجيده للعلم وإعزازه للعلماء، وهذا الموضوع يشمل أهمية العلم وعلو مقام العلماء، والحث على طلبه والمواظبة على ذلك، وتبيان أهداف العلم السامية وأثره في سلوك الفرد والمجتمع، وتوجهات العلماء الإنسانية، وآداب المعلم، وآداب المتعلّم، وأنواع العلوم التي ازدهرت في ظل الحضارة الإسلامية، والمعالم الإبداعية التي اتسمت بها هذه العلوم، ونبوغ العلماء في مختلف مجالات الحياة العلمية، واكتشافاتهم في مجال الطب والهندسة والكيمياء وغيرها، ممّا أصبحت بعد ذلك أساساً للدراسات التي قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة. إن الحديث عن هذا الجانب متشعب وطويل، وقد أُلِّفت الكتب العديدة في هذا المجال، ولذلك سنقتصر في حديثنا هذا على التوجهات الحضارية للعلم في الإسلام التي تشمل أهمية العلم وأهدافه وصفات العالم الرباني الحقيقي، وآداب المتعلم وكيفية طلب العلم، وكيفية العمل بهذا العلم، وخلاصة الأمر أننا سنركز على الحالة القيمية للعلم كمفهوم حضاري يصوغ شخصية الإنسان المسلم، بحيث يوجه علمه نحو خدمة الإنسانية، ويحاول تخليصها من آلامها المبرحة، ويشعره بمسؤوليته العلمية الخطيرة، وينمي روح الإبداع لديه.

إنَّ الهدف من هذا البحث هو تحريك الإنسان المؤمن في اتجاه

---

(١) نشر في مجلة الفيصل.

العلم الحقيقي لينهض بنفسه وبأمته ويلحق بالركب الحضاري المتقدم ويكون سبّاقاً في هذا المضمار، وهذا الأمر يستلزم تربية خاصة ونفسية خاصة وأجواء عامة تساعد على العلم وتكرّم العلماء وتهيىء لهم كل أسباب النجاح.

أهمية العلم في الإسلام:

يهتم الإسلام بالعلم اهتماماً كبيراً، لكونه الطريق الموصل إلى الإيمان بالله وبرسالاته، وهو الدليل الواضح للسير على منهاج الإسلام وبالتالي لتحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، فأكثر الناس خشية لله هم العلماء ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] وإنما خافوه لأنّهم عرفوه حق معرفته وعبدوه حق عبادته، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأوّل شهادة للعلم في الإسلام هي أوّل سورة في القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١]، وأقسم الله سبحانه بالقلم لأهميته العظيمة وفائدته الكبيرة للناس ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١]... وإننا لو أحصينا الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة حول العلم لأصابنا الذهول من كثرتها وتأكيداتها الصريحة حيث يرفع الله منزلة العلماء إلى درجات عالية تقرّبهم من درجة النبوة ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]. قال الرسول محمد ﷺ: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد»[1]. وقال ﷺ: «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء

(١) ميزان الحكمة شهري ص٤٥٦.

الأنبياء، وورثتي وورثة الأنبياء»[1]. «يوزن مداد العلماء ودم الشهداء، يرجحّ مداد العلماء على دم الشهداء»[2] «يجيء الرجل يوم القيامة وله من الحسنات كالسحاب الركام أو كالجبال الرواسي فيقول: يا رب أنى لي هذا ولم أعملها؟ فيقول هذا علمك الذي علّمته يعمل به من بعدك»[3]. وإذا أردنا أن نحصي ألفاظ ومعاني ودلالات العلم في القرآن الكريم نجد أنه قد «تكرر لفظ العلم ومشتقاته في القرآن الكريم ٧٦٥ مرّة ويبلغ عدد الآيات العلمية ٧٥٠ آية مقابل ٢٥٠ آية تشريعية فقط»[4] «وقد وردت مادة القراءة في القرآن الكريم في سبع عشرة آية، والصحف في ثمان آيات، والسطر في خمس آيات، والكتابة بمعنى الخط في نحو ثلاثمائة آية، والدرس في ست آيات، والتعليم في أربع آيات، وكلّها أدوات لازمة للقراءة، والقراءة في الإسلام باسم الرب الخالق الذي بدأ الخلق من علق لا تكاد تبصره الأبصار، ثم ربّاه حتى ارتفع به إلى مستويات التعليم التي لم يكن يعلمها، فمصدر العلم في تصور المؤمن هو الله سبحانه فيهتف مع الملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] والعالم في الإسلام يحس في كل لحظة بأنّه في حاجة إلى مزيد من العلم ويشعر بضآلة المعرفة مهما توسع أو تخصص في الدراسة، فهو دائماً داعٍ إلى الله أن يزيده علماً: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وهو متواضع دائماً، ساعٍ أبداً إلى الحقائق بعيداً عن الظنون والأوهام متمثل قول ربه عز وجلّ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]»[5].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق ص٤٥٩.
(٣) المصدر السابق ص٤٧٠.
(٤) الإسلام يدعو إلى العلم واستخدام الحواس - محمد عباس أحمد ص٨.
(٥) الفكر التربوي العربي الإسلامي. د. أحمد عبد الرحمن عبد اللطيف ص٣٠٧.

وطلب العلم في الإسلام ليس للنزهة العابرة وليس لحب الاستطلاع، وليس لتجميع المعلومات وتخزينها، وليس لأن يقال فلان عالم أو أعلم، إنّما فرض الله على العالم مسؤولية خطيرة هي نشر العلم وهداية الناس وتبليغ رسالات الله قال الرسول محمد ﷺ: «من سُئل عن علم ثم كتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[1]. وقال الإمام علي عليه السلام: «لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيتُ آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهدُ عندي من عفطة عنز»[2].

«إنَّ القرآن الكريم استعمل مصطلحي (التعليم والتعلم) على نطاق أوسع وبدلالات أكثر تعدداً تتفق جميعها على إضافة العلم بالأشياء إلى غير العالم ليصبح بها عليماً ويبرأ من الجهل ما لم يفيء إلى المكابرة فتقوم عليه الحجة. جاء في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن: ٣،٤] ، وجاء في سورة البقرة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣١] وجاء في سورة النساء: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. والعلم في هذه الآيات ونظائرها يفيد الانتقال من الجهل - وهو الخلو من المعرفة بالأشياء - إلى امتلاك هذه المعرفة وهذا هو نوع من الانتقال من الضعف إلى القوّة، والقرآن صريح في التنبيه إلى هذا المضمون الاجتماعي للعلم إذ هو يقرنه إلى السلطة ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[3] [البقرة: ٢٥١].

---

(١) ميزان الحكمة ص٣١٨.

(٢) نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام شرح محمد عبدو ج١ الخطبة رقم ١٣ المعروفة بالشقشقية - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٤١٣ - ١٩٩٣م.

(٣) الفكر التربوي العربي الإسلامي ص٦٣٠ الأصول والمبادىء - تونس ١٩٨٧ - =

أهداف العلم:

إنَّ تحديد أهداف العلم ذو أهمية كبيرة للعلماء وللبشرية جمعاء، فيجب البدء أولاً بتغيير ذهنية العلماء تغييراً حضارياً، بحيث يتوضح لديهم البعد الإنساني لاكتشافاتهم واختراعاتهم وأبحاثهم، فيتجهون في إبداعاتهم اتجاهاً خيّراً يُبعدهم عن كل الأفكار الشريرة التي تجلب السوء والدمار للبشرية، وأن لا يجعلوا من العلم غاية بحدٍّ ذاته بل وسيلة نحو التقدم والرقي والسعادة «ليس ثمة ريب في أن اتجاهه (العلم) كان حتى الآن نحو تكثير (وسائل) الحياة ونشرها أكثر منه نحو استيضاح (الغايات) والرفع من شأنها. فلقد مال إلى دعم عبادة الكمية والقوة المادية، ولم يُعنَ عناية كافية بتنقية الطبيعة البشرية أو ببعث النمو الشخصي الداخلي»[(١)].

إنَّ العلم إذا اتجه اتجاهاً تدميرياً بحيث تنتزع منه كل القيم والمثل الخلقية، فإنَّ الحياة البسيطة أفضل منه ومن كل اختراعاته مهما تفنن في اختراع وسائل الترفيه، لأن الإنسان جسمٌ وروح، يتكامل بالأمور المعنوية كما يكتفي بإشباع رغباته المادية، فالبيت المتواضع البسيط الذي تغمر ساكنيه الطمأنينة والسعادة، أفضل من قصر مجهز بأحدث ما وصل إليه العلم الحديث، ولكن تسكن فيه عائلة غارقة في المشاكل والنزاعات والعقد النفسية، إن عالمنا المعاصر تقدّم ماديّاً ولكنه تراجع روحياً ومعنوياً إلى الوراء. . .

إنَّ الإسلام حدّد بوضوح هدفاً واحداً للعلم، وهو معرفة الله تعالى، فالعلم الإلهي الذي يتعلق بمعرفة الله هو هدف بحدٍّ ذاته، وباقي العلوم

= المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(١) هذا العالم المتفجر - قسطنطين زريق - ص٩٥ - دار العلم للملايين - بيروت - تشرين الأول ١٩٦٣م.

كلها وسائل لا غايات «لا شك أنَّ بعض العلوم هدف بذاته كالمعارف الربوبية، ومعرفة الله وما يتعلق بذلك، كمعرفة النفس والمعاد، فإذا تجاوزنا هذه، تكون العلوم الأخرى وسائل لا أهدافاً، أي أنَّ ضرورة علم ما وفائدته لا تتحدد بمقدار أهميته كوسيلة لتحقيق عمل أو وظيفة فكل العلوم الدينية، باستثناء المعارف الإلهية، كعلم الأخلاق، والفقه والحديث، تدخل في ذلك المعنى، أي أنها كلّها وسائل، لا أهداف، ناهيك عن العلوم الأدبية والمنطق التي تدّرس في المدارس الدينية كمقدمات»[1]. وبعد أن بيّن لنا الإسلام الهدف الإلهي للعلم، دعانا أن نلتزم بالإسلام ونتخلق بأخلاق القرآن، وأن نتربى تربية إسلامية، وأن نضع الله سبحانه نصب أعيننا دائماً، بحيث لا ننحرف ولا نزيغ ولا نعبث بحياة البشرية بآلات الإرهاب والدمار والفساد، يقول تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]. قد يكون هذا الحديث مثالياً بنظر البعض في الوقت الحاضر حيث طغت الحياة المادية والحسابات المالية على كل عقل وعلم وتفكير، ولكن طغيان الكفر والانحراف لا يبرر السير في تياره، بل يجب على كل من ملك عقله وأحيا ضميره ووعى حقيقة الحياة وعرف هدفها السامي، أن يقف بحزم أمام كل الانحرافات اللا أخلاقية التي تهيمن على العلوم وتشتري ضمائر العلماء بالدراهم والدنانير..

ملاحظات مهمة أمام العلماء:

ينبغي أن تتوضح أهداف العلم بصورة أكثر للعلماء بأنَّ هدف العلم ليس معرفة أكبر قدر من المعلومات، وليس لأن نثقل الناس بتجميع العلوم والكتابة تحت باب (هل تعلم)، ليس الهدف من العلم إشباع نهم العلماء

(١) العالم في المنظور الإلهي والمنظور المادي مرتضى مطهري ص٨٩ ترجمة جعفر صادق الخليلي - مؤسسة البعثة طهران - إيران.

بمعرفة أسرار الكون والحياة فقط، بل يجب التركيز في ذهنياتهم الهدف من وراء معرفة هذه الحقائق، وبتعبير أدق معرفة هدف الكون والحياة، ولكي تصب كل علومهم واختراعاتهم في مصب هذا الهدف فقط ولا تنحرف إلى سبل غيره ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إنَّ الهدف من العلم تحقيق أكبر تلاؤم بين الإنسان والكون، تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة الحقيقية للإنسان، تأدية الإنسان لوظائفه المادية والمعنوية على أفضل وجه، وأخيراً معرفة الله وابتغاء رضوانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]. ونقطة أخرى ينبغي عرضها وإجلاء ما يحيط بها من غموض وشكوك وأوهام، وهو أننا ينبغي أن نتعامل مع العلم بحذرٍ كامل وبموضوعية تامة، ولا نأخذ كل شيء مأخذ المسلمات التي لا يمكن النقاش حولها، وهذا يتضمن معرفة أنَّ النظريات والتجارب العلمية متغيرة متطورة وقديماً قال الإمام علي عليه السلام: «في التجارب علم مستأنف»، فكثيراً من النظريات السابقة نسختها نظريات لاحقة، وكثيراً من الآراء العلمية لبعض العلماء، تعارضها نظريات أخرى لعلماءٍ آخرين، كما أن كثيراً من النظريات والمفاهيم للعلوم الإنسانية كعلم النفس والاجتماع والاقتصاد لم تصل إلى درجة اليقين القطعي فينبغي أن تكون نظرتنا إليها نظرة نسبية لا تصل إلى الاعتقاد والإيمان الكامل بها. ويجب إبعاد العلم عن السياسة وعن التعصبات المقيتة، وتجريده من كل انحياز وتطرف، ووضعه موضع الحياد والتجرد، والاتجاه به نحو معرفة الحقيقة كما هي، لنتوصل بواسطتها إلى توجيه الحياة توجيهاً ربانياً، يستهدف رضاء الله، ومعرفة الإنسان نفسه ومعرفة ما يحيط به معرفة تامة، والسير وفق القواعد والقوانين التي تحقق الحياة الإنسانية السعيدة التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها.

العلم والعمل:

من الحقائق الثابتة في الإسلام أنَّ العلم مقترنٌ بالعمل إذ «لا خير في علم بلا عمل» كما ورد في الحديث الشريف، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣]. قال النبي محمد ﷺ: «إنَّ العلم يهتفُ بالعمل، فإن أجابه، وإلا ارتحل عنه»[١]. فالعلم يجب أن ينعكس على سلوك العالم وتعامله مع الناس وفق ما علم به، ووفق ما توضحت له حقائق الإيمان والإسلام، خلق وطيبة وذوق حضاري رفيع، وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم ﷺ والمسلمين قاطبة بتبليغ الرسالة وإنذار الناس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ [المدثر: ١، ٢]. إن سلوك المسلمين الأوائل في الجمع بين العلم والعمل أوضح دليل على هذا المفهوم الإسلامي ومصداق كبير له وبرهان عظيم عليه «حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل»[٢]. وطلب الإسلام من المسلمين كافة تعلّم الصنّاعات واكتساب المهارات اليدوية لكي يعتمدوا في معيشتهم على ما يكتسبون بعرق جبينهم، وطلب إليهم الامتناع - جهد الإمكان - عن التكسب بالعلم والدين، وجعله الوسيلة الوحيدة لمعاشهم، وأجاز الإسلام ذلك في مواضع استثنائية لا يستطيع العالم فيها كسب المال من أجل معيشته.

وطلب الإسلام من المسلمين أن يكونوا سبّاقين في كل مجالات الحياة، ومن ضمنها مجال العلم ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]. وقال النبي محمد ﷺ: «إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد

(١) الحياة محمد رضا الحكيمي ح٥٣ ص٢٧٧.

(٢) الإسلام والوعي الحضاري د. أكرم ضياء العمري.

فيه علما يقربني إلى الله عز وجل فلا بورك لي طلوع شمس ذلك اليوم»[1]
ويقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ : «من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون» . والإسلام يدعو إلى إعمال العقل والإبداع العلمي والتجديد في ميادين العلم والمعرفة.

آداب المعلّم والمتعلم:

اهتم المسلمون اهتماماً شديداً بتعيين صفات العالم وما ينبغي أن يكون عليه وكيفية إلقاء درسه وكيفية التعامل مع تلاميذه، كما وضع المسلمون الآداب والقواعد الكثيرة التي تحدد آداب المتعلم وكيف يتلقى دروسه، وكيف ينبغي أن تكون شخصيته، وكيف يحصّل علومه بأحسن وأسهل طريقة.

طالب الغزالي في إحياء علوم الدين، المعلم أن يتحلى بالآداب التالية:

١ - الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه.

٢ - أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه فلا يطلب على افادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً بل يعلّم لوجه الله.

٣ - أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً.

٤ - أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق.

٥ - أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كمعلم اللغة الذي في عادته تقبيح علم الفقه مثلاً.

٦ - أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه.

---

(١) الإسلام يدعو إلى العلم واستخدام العقل والحواس، محمد عباس أحمد.

٧ - أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الحلي اللائق به ولا يذكر أن وراء هذا تدقيقاً.

٨ - أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله.

كذلك أوجب الغزالي على «المتعلم» الواجبات التالية:

١ - تقديم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن لله.

٢ - أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا.

٣ - أن لا يتكبر على المعلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية.

٤ - أن يحترز من الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء فيما كان من أمور الدنيا أو الآخرة.

٥ - ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقاصده وغاياته.

٦ - أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعي فيه الترتيب ويبتدىء بالأهم.

٧ - أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فإنَّ العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض.

٨ - أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم.

٩ - أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة.

١٠ - أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر القريب على البعيد والمهم على غيره[١].

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي ص٦٣٣.

أمّا ابن جماعة فقد أوجب على المعلم ما يلي:

١ - دوام مراقبة الله في السرّ والعلن والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته.

٢ - أن يصون العلم كما صانه علماء السلف ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزّة والشرف.

٣ - أن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان الذي لا يضرُّ بنفسه أو بعياله.

٤ - أن ينزّه علمه عن أن يجعله سلّماً يتوسل به للأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة.

٥ - أن يتنزه عن دنيء المكاسب ورذيلها طبعاً وعن مكروهها عادة وشرعاً.

٦ - أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام.

٧ - أن يحافظ على المندوبات الشرعية القولية والفعلية.

٨ - أن يعامل الناس بمكارم الأخلاق.

٩ - أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة وأن يعمره بالأخلاق المرضية.

١٠ - دوام الحرص على الازدياد من العلم بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الأوراد من العبادة والاشتغال والأشغال قراءة وإقراءً ومطالعة وفكراً وتعليقاً وحفظاً وتصنيفاً وبحثاً.

١١ - أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً.

١٢ - الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف لكن مع تمام الفضيلة وكمال الأهلية.

أما المتعلم فقد أوجب عليه ابن جماعة «الآداب» التالية:

١ - أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه.

٢ - أن يكون حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به وإحياء الشريعة وتنوير قلبه وتحلية باطنه.

٣ - أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل ولا يغتر بخدع التسويف والتأميل.

٤ - أن يقنع من القوت بما تيسر وإن كان يسيراً ومن اللباس بما يستر مثله وإن كان خلقاً فالصبر على الضيق ينيل سعة العلم.

٥ - أن يقسم أوقات ليله ونهاره ويغتنم ما بقي من عمره في طلب العلم.

٦ - أن يكتفي بالقدر اليسير من الطعام والشراب والحلال.

٧ - أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شؤونه.

٨ - أن يقلل من استعمال المطاعم التي هي من أسباب البلادة وضعف الحواس.

٩ - أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه.

١٠ - أن يترك العشرة فإن تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم[(١)].

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي ص٦٣٢.

عقلية الإنسان المسلم

يعتبر العقل مصدر التفكير ومصدر الإيمان ومنبع الإبداع، وهو الموجه المركزي لجسم الإنسان وإرادته، والدافع الأساس له للقيام بالأعمال الحضارية الهادفة، ومن هنا تظهر أهمية العقل، إذ لولاه لأصبح الإنسان مجنوناً، أو معتوهاً، أو أحمقَ، ولأصبحت المجتمعات منحطة متخلفة أقرب إلى الحياة البهيمية الحيوانية همّها علفها، وبمقدار ما يصلح العقل يصلح الإنسان، وبالتالي يصلح المجتمع الذي يتكون بمجموعه من الناس، وبمقدار ما يمكن تغذية العقل فكرياً وتهذيبه وتشذيبه وفق التصورات الحضارية، فإنّ المجتمع سيتقدم وسيتطور بمقدار هذا التهذيب. إن بلاء المسلمين وعذابهم والنكسات التي تحلّ بهم، ناتجٌ من هذه العقول المتخلفة والراكدة والقاصرة، والتي تفتقد الحيوية والأصالة، إننا بحاجة إلى فكر متفتح وعقلٍ عملي يعي الأشياء ويدفع بالإنسان إلى حمل الأمانة الإلهية على أكمل وجه «رحم الله امرءاً. . .».

إنَّ تغيير العقول ليس بالأمر الهيّن أبداً، بل هو عملية تثقيف نظرية مستمرة، وهو عملية تحريك ميدانية متواصلة داخل المجتمع، إذ أن الذهنية الراكدة تنشأ من انعزالها وتقوقعها، وعدم مواكبتها لما يجري في الحياة من أفكار وأحداث وتطورات، ويحدث الخلل في العقلية الراكدة أولاً ثم في مجموع العقول التي تتأثر بهذه العقلية إن كانت تتحمل بعض المسؤولية، وكلّما كثرت العقليات الراكدة وتوسعت وانتشرت في المجتمع، فإنّ هذا المجتمع سيتصف بالتخلف والركود والجمود ﴿ وَقَالُوا

﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

العقل لغة واصطلاحاً:

لغة: «العلم، أو بصفاتِ الأشياء، من حُسْنِها وقُبْحها، وكمالِها، ونقصانِها، أو العِلْمُ بخَيْرِ الخَيْريْنِ، وشَرِّ الشَّرَّيْنِ، أو مُطْلَقٌ لأمورٍ، أو لقُوَّة بها يكونُ التمييزُ بين القُبْح والحُسْنِ، ولِمعانٍ مُجْتَمِعةٍ في الذهن، يكون بمقدمات يَسْتَتِبُّ بها الأغراضُ والمصالِحُ... ولهيئة محمودةٍ للإنسان في حركاتِهِ وكلامِهِ والحَقُّ أنه نور روحانيٌّ، به تُدْرِكُ النفسُ العلومَ الضروريَّة والنظريَّة، وابتداء وجوده عند اجتنانِ الوَلَدِ، ثم لا يزال ينمو إلى أن يَكْمُلَ عند البلوغ»[1].

وفي تعريف آخر: الحِجْر والنُّهى[2].

اصطلاحاً:

«عبارة عن مركز الفكر، ومن وظائفه تركيب المفاهيم الذهنية، وتجزئتها، وتجريدها، وانتزاعها، وتعميمها»[3].

ولا يهمنا في هذا المجال أن يكون العقلُ شيئاً معنوياً خارجاً عن نطاق المادة المتمثلة بالرأس والمخ والمخيخ والنخاع الشوكي، أو هو هذه الأشياء كلّها، المهم أننا نعرف أن العقل هو مصدر التفكير والاستنتاج، وتوجيه الإنسان توجيهاً فكرياً أو اجتماعياً، من أيّ مخرج

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي ص١٣٣٦ مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) مختار الصحاح الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ص٤٤٦ دار أسامة بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

(٣) مباني المعرفة محمد محمدي ري شهري ص١٨٢. ١٩٩١م.

خرج هذا التفكير ومن أيّ منبع صَدر، المهم هو أننا كيف نفكر تفكيراً سليماً؟ كيف نستنتج بصورة صحيحة؟ كيف نتخذ القرار المناسب؟ كيف نقتنع؟ كيف نتوصل إلى الحقائق الثابتة؟ كيف نؤمن بها؟ كيف نسير عليها؟ كيف تتوضح رؤيتنا للكون والإنسان والحياة؟ أجوبة هذه الأسئلة وغيرها الكثير تنطلق من العقل وترجع إليه.

منزلة العقل في القرآن والسنة:

كلُّ من له اطلاع على القرآن الكريم وعلى الحديث النبوي الشريف وأحاديث الأئمة عليهم السلام يُدرك بوضوح اهتمام الإسلام بالعقل، ودعوة الناس إلى الاستفادة من عقولهم للوصول إلى الحقيقة، والاقتناع بالحق والإيمان به بواسطة الدليل والحجة والبرهان، وأن التركيز على العقل في القرآن الكريم من كثرته بحيث يلفت النظر ويجلب اهتمام القارىء والسامع على حدٍّ سواء. ويتجه القرآن الكريم بالخطاب المباشر للمسلمين في بعض الأحيان لاستخدام عقولهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [المائدة: ١٠٠]...

«يعم الخطاب القرآني كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة كالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذي يُناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥] صيغة (تعقلون) تكررت ٢٤ مرة - (يعقلون) تكررت ٢٢ مرة - من غير الصيغ الأخرى نعقل، يعقلها... جاءت مادة (العلم) مراداً بها علم الناس لا علم الله نحو ستمائة آية، والرأي في نحو ثمانين، والنظر بمعنى العلم نحو ثلاث وعشرين، والقلب بمعنى العقل في مائة وثلاث وثلاثين، والنُهى بمعنى العقل في اثنتين والفؤاد بمعنى العقل في ست عشرة، والألباب بمعنى العقول في ست عشرة، ووردت مادة الفكر في ثماني عشرة، وتكررت مادة الفقه بمعنى الفهم في عشرين، والتدبر في واحدة،

والرشد في تسع عشرة، والذكر في نيف ومائتين، والحكمة في عشرين، والعبرة في سبع»[1].

أمّا الأحاديث الشريفة التي تبين أهمية العقل وتؤكد عليه، فهي كثيرة جدّاً، نذكر منها الأحاديث التالية: قال النبي محمد ﷺ: الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له. وقال الرسول محمد ﷺ: لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقدة عقله.

أثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا فيه فقال: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال: إنَّ الأحمق يُصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر، وإنّما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم»[2].

قال النبي محمد ﷺ حين سأله عليٌّ عليه السلام عن سنته «والعقل أصل ديني».

وقال ﷺ: «الناس يعملون الخيرات، وإنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم». وقال ﷺ: «ولا بعث الله رسولاً ولا نبياً حتى يستكمل العقلَ ويكون عقلُهُ أفضلَ بين عقول جميع أمته».

قال الإمام علي عليه السلام: عند بديهةِ المقال تُختَبرُ عقول الرجال.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أردتَ أن تختبرَ عقلَ الرجل في مجلس واحد، فحدّثهُ في خلال حديثكَ بما لا يكون، فإن أنكرهُ فهو عاقل، وإنْ صدّقَهُ فهو أحمق»[3].

---

(1) الفكر التربوي العربي الإسلامي - الأصول والمبادىء - د.زينب حسن حسن ص٣٩٧ تونس ١٩٨٧م المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(2) المدنية والإسلام محمد فريد وجدي ص٥٥ - ٥٦ - مصر ١٩١٢م - ١٣٣٠هـ.

(3) الشاب بين العقل والعاطفة محمد تقي فلسفي م١ ص١٤٧ - ١٥٠.

العقل أساس التكليف:

حدّد التشريع الإسلامي وظيفة العقل، وأوجب على الإنسان المسلم التكاليف الشرعية بشرط أن يمتلك الإنسان عقله، وبتعبير آخر أن يكون عقله سليماً صحيحاً معافى، فإذا فقد الإنسانُ عقله سقط عنه التكليف، فالعقل حجة على الإنسان يوم القيامة، وسيحاسب على مقدار ما توصل إليه عقله من عقائد وأفكار وقناعات. ورد في الحديث الشريف: «إنَّ لله على الناس حجتين: حجّة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأمّا الباطنة فالعقول»[1] وفي حديث آخر: «إنّ القلم يرفع عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ»[2].

هكذا هو الإسلام، لا يحاسب المسلم إلا إذا كان في حالة سوية يمتلك فيها وعيه ويمتلك فيها عقله ويمتلك إرادته ويملك حرية الاختيار ويتخذ القرار الحاسم في الأمور كلها ويملي إرادته، «الإنسان الذي ليس له عقل راشد يهديه ويوجهه ليس مخاطباً بالدين أصلاً، لا أصولاً ولا فروعاً، ومن أولى شروط العقيدة السليمة في الإسلام أن تقوم في سائر مسائلها الكلية والجزئية على أساس من اليقين العقلي الصحيح، والعقل هو أساس التكليف في الإسلام»[3].

---

(١) أصول الكافي ص١٦ ج١ كتاب العقل والجهل - الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ - دار الكتب الإسلامية طهران.

(٢) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي ج١ ص٤٥ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث/ قم - إيران ط١ - ١٤٠٩ هـ.

(٣) الفكر التربوي العربي الإسلامي، عمر محمد التنوخي الشيباني ص١٤٦ - ١٩٨٧م.

تحديات أمام العقل الإنساني:

وبالرغم من أهمية العقل فإنَّ بعض العلماء المسلمين ينبهون إلى قصور العقل ومحدودية إمكانات إدراكه ومعرفته وخاصة في الأمور الغيبية والدينية والخلقية. إنَّ كثيراً من المعارف يتوصل إليها عن طريق الحواس ثم تعرض على العقل، ولكن الحواس قد تخطىء في معرفتها للأشياء أو تنخدع ثم إن العقل يقصر حتماً عن إدراك العمل اللامحدود لله سبحانه وتعالى، وقد يقصر حينما تؤثر على الإنسان الظروف الاجتماعية، أو يعاني نقصاً فسيولوجياً يمنعه من أن يستخدم عقله استخداماً سليماً على أكمل وجه وأفضله، ولذلك فما دام العقل قاصراً وما دامت الظروف العامة تؤثر عليه، فيكون في حالات قوة حيناً، وفي حالات ضعفٍ حيناً آخر، كان لا بدَّ له من الوحي ليكمل حالات النقص التي تطرأ عليه، ويأتي لطف الله ليبين للإنسان مقدار عجزه، وما فيه مصلحته في الدنيا والآخرة فيستقبل الإنسان التوجيهات الربانية بفرح وشغف وسرور، كما تستقبل الأرض والفلاَّح رذاذ المطر، لما فيه حياة للأرض الميتة. وهناك خطرٌ ثانٍ يهدد البشرية ويأتي من انحراف العقل عن المبادىء الخلقية وعن المناهج العلمية، فحينما يتخلى العقل عن الأخلاق وعن الالتزام بالمثل والقيم، فإنه يصبح آلة رهيبة لتدمير البشرية، فالآلات المدمرة التي يصنعها الإنسان، والذهنية اللا أخلاقية واللا إنسانية التي يوجدها لدى العلماء ويجعلهم وحوشاً كاسرة لا ضمائر لها ولا تعرف الرحمة أبداً «يجب أن نتأكد أنه بالعقل وبمساعدة الأعراف والتقاليد يستمر التطور الإنساني ولكن وظائف العقل عديدة ويمكن أن تتبدى في اتجاهات أخرى غير الاتجاهات التي تقود إلى التطور الخلقي، فالذكاء وحده غالباً ما يؤدي إلى آراء هدّامة

أو إلى مناقشات عقيمة معقّدة متشابكة إذا كان مجرّداً عن المبادىء الخلقية»[١].

لا يكفي للعقل أن يكون نشيطاً وللذكاء أن يكون حادّاً ما لم يتوافر لهما الضمير والأخلاق والقيم، فإن خلا العقل من الأخلاق أصبح آلة للدمار رهيبة وآلة للفساد عجيبة، لا بدَّ للعقل من هدفٍ يصبو إليه ومن مُثلٍ عالية يرنو إليها ليمزج هذا الهدف العظيم وهذه القيم الرائعة مع علمه وذكائه، لتتكامل الحياة تبعاً لذلك مادياً ومعنوياً، وتتحقق السعادة البشرية كما أرادها الله سبحانه على واقع الحياة، ولذلك نلاحظ أنَّ بعض الكتّاب والمؤلفين يشيرون إلى خطورة العقل التدميرية «ليس نشاط العقل إلاّ للتدمير وكشف العيوب في موقفنا الإنساني أمام العالم الخارجي الذي يشمل في خارجيته الآخرين، أو أمام أية قضية تعترض أعرافنا وتصطدم باقتناعنا اليقيني. . . ولا شك بأنَّ التفسير الأكثر معقولية لانحلال مدنيات التاريخ ورضوخ أغلبها إلى أقوام أقلّ تقدماً من شعوبها، ووهنها أمام الغزو الخارجي هو الفتور بالإيمان الغيبي الذي كان يشدُّ المجتمع حول مثله العامة، ويدفعه إلى هدفيته السامية، هذا الفتور جاء دائماً نتيجة النشاط العقلي»[٢]. مع هذا النشاط العقلي الممتزج بالقيم والأخلاق، ينبغي أن يتوافر معها الصفاء الذهني الذي لا تشوبه ولا تؤثر عليه كل معوقات الحياة ومتطلباتها هذا الصفاء الذي يُنتج الفكرة نقية صافية، واقعية كما هي وعلى حقيقتها، ولا بدّ للعقل أن يكون حيوياً فاعلاً مؤثراً يبدع الأفكار دائماً ويحلّ المشاكل، ويضع الخطط والبرامج الناجحة

---

(١) مصير البشرية ليكونت دي فوي ص١١٣ ترجمة أحمد عزت طه وعصام أحمد طه - دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر سورية - دمشق الطبعة الثالثة ١٩٦٣م.

(٢) الإنسان والحضارة - مدخل دراسة يوسف الحوراني - ص١٧٥ - ١٧٨ - دار الحياة - بيروت تاريخ الطبع لا يوجد.

للأشخاص وللمجتمعات «ولعلَّ هذا اليوم الخطير الذي نعيشه لا يحتاج إلى شيء حاجته إلى مثل هذه الحيوية والصفاء، فبالعقل الناشط نفعل فعلاً حقيقياً نافذاً في الطبيعة وفي مجتمعنا وفي أنفسنا، وبالخلق والضمير نوجه هذا الفعل إلى الخير والبناء، بل إنَّ العقل في جوهره خلق، فإذا حصل هذا الخلق لأيّ مجتمع من المجتمعات أو وطن من الأوطان، فلا تخف عندها على سلامته، ولا تخشَ أن تزعزعه الزعازع أو أن يذهب ضحية طمع خارجي أو تناحر داخلي»(١).

اختلاف العقول (اختلاف وجهات النظر):

تواجهنا مسألة أخرى، هي اختلاف العقول، اختلاف درجات فهمها، الناتج عن اختلاف مقادير العقول ومقادير الذكاء، هذا الأمر يدركه كل إنسان حينما يطل إطلالة بسيطة حول ما يقال في المجالس والمنتديات، وحول ما يُكتب في الصحف والكتب والمجلات، فكيف يتم التوفيق بين هذه العقول؟ وكيف يتم الوصول إلى الحقيقة كما هي؟ وكيف تتوحد الآراء؟ في الساحة مذاهب متعددة وتيارات فكرية مختلفة، كل واحدٍ منها يدَّعي الحقَّ لنفسه، ويؤمن بأنَّ رأيه هو الحقيقة بعينها:

كل يدّعي الوصل بليلى

فهل الحقيقة مختلفة حقاً؟ هل تتناقض الحقائق فيما بينها؟ هل أن وجهات النظر كلها صحيحة وإن اصطدم بعضها بالبعض الآخر؟! الجواب على هذه التساؤلات: كلا، إنَّ الحقيقة واحدة لا تتغير ولا يمكن اجتماع النقيضين في آنٍ واحد. إنَّ الحقائق الثابتة هي التي نزلت عن طريق الوحي الإلهي، ولو استمر الوحي الإلهي بالنزول إلى يومنا هذا لانتهى الأمر

---

(١) هذا العصر المتفجر - قسطنطين زريق - ص١٣ دار العلم للملايين - الطبعة الأولى ١٩٦٣م تشرين الأول - بيروت.

«وقطعت جهيزة قول كل خطيب» ولكننا الآن في فترة منقطعون فيها عن الوحي الإلهي وعن توجيهات النبوة والإمامة، فمن البديهي أن تختلف الآراء في النظر إلى الحقيقة ولكنَّ «الحقيقة واحدة بدون شك إلاّ أنَّ الزوايا التي ينظرون منها إلى الحقيقة تختلف من شخص لآخر. إنَّ هذا الاختلاف في زوايا المشاهدة هو الذي يوجد التصورات المختلفة عن الحقيقة الواحدة»[1]. إنَّ الإسلام لا يمنع العقول من أن تتفتح وتثمر وتعطي رأيها، ولا ينظر إليها كالنظرة إلى الأمراض السارية التي ينبغي وضع الحجر الصحي على المصابين بها، بل يدعوهم الإسلام إلى الحوار والنقاش ويفتح الباب على مصراعيه لمن أراد ذلك، وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم ﷺ إلى فتح باب الحوار مع أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]. ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]. إنَّ الوصول إلى الحقيقة عبر تلاقح العقول عن طريق الحجة والدليل والبرهان هو الأمر المحبب والمطلوب في الإسلام ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

وحينما اختلفت الآراء في عهد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وانحرف بعض الناس فكرياً واعتقادياً، لم يشهر الإمام عليه السلام السيف في وجه هؤلاء بل نصب فسطاطاً في قارعة الطريق يدعو فيها الآخرين إلى الحوار والنقاش معه. إنَّ احتجاجات النبي محمد ﷺ والأئمة عليهم السلام كثيرة جدّاً، وهي موجودة في كتب التراث

(١) حكمة الدين، تفسير عناصر الإسلام ومقتضياته ص١٩ وحيد الدين خان - الطبعة الأولى ١٩٧٣م المختار الإسلامي القاهرة.

الإسلامي وضم أغلبها كتاب (الاحتجاج) للطبرسي. إننا - كمسلمين - لا نضع خطاً أحمر على أيّ رأي وعلى أي اعتقاد، بل نفسح عقولنا وقلوبنا لمناقشة هذه الآراء وهذه الاعتقادات بشرط أن يقوم النقاش على أسس علمية ومنهجية صحيحة مستندة إلى الدليل والبرهان. إنَّ الإسلام يرفض التعصب والتعنت بكل أشكاله وألوانه ويرفض السير وراء النزعات والأهواء.

وأن تجربة المسلمين في تأصيل المنهج العلمي تجربة عظيمة، يشهد لها التاريخ الإسلامي بصفحات مليئة بالفخر والاعتزاز «لقد منحت هذه التجربة أهلها درجة عالية من الشجاعة الخلقية في مواجهة نتائج المنطق العلمي، فلم يتخوفوا من الاختلاف في المذاهب علمية كانت أم دينية أم اجتماعية لأنَّ المذاهب هي نتائج الآراء، والآراء ثمرات العقول والعقول منح الله للعباد وهذه النتائج مختلفة بالصفاء والكدر وبالكمال والنقص وبالقلة والكثرة والخفاء والوضوح، لقد أدّت هذه النزعة الموضوعية في التسليم بالاختلاف في الرأي إلى استهجان القول بوجوب توحّد الفكر واتفاق الآراء من دون مبرر للوحدة أو للوفاق، قال أبو حيان التوحيدي: (إني لأعجب من ناس يقولون كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد ومنهاج واحد وهذا ما لا يستقيم ولا يقع به نظام). أبعد من أبي حيان ذهب إخوان الصفا إلى تبرير الاختلاف والتنوع في الآراء بتنبيههم إلى أنَّ فيها فوائد كثيرة لا يحصي عددها إلا الله الواحد القهّار لأنَّ العقلاء كما وضعوا القياسات إلى كل من أحدث مذهباً واعتقد رأياً من الآراء فإنَّ ذلك يصير داعياً إلى طلب الحجة عند خصمائه وعذراً عند العقلاء ويكون سبباً لغوص النفوس في طلب المعاني والنظر إلى الأسرار الخفية ووضع القياسات واستخراج النتائج واتساع المعارف ويكون سبباً ليقظة النفوس من نوم الجهالة وانتباهاً لها من السهو والغفلة»[1].

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي. د. محمد جواد رضا ١٩٨٧م تونس.

حدود العقل:

ما هي حدود العقل بالنسبة إلى معرفة أسرار الكون؟ وهل يجب أن يعرف العقل كل السنن الكونية؟ هل يصل إلى العلم بكل شيء فيصبح هو المرجع في كل الأمور؟ وبتعبير دقيق أين تقف هذه المعرفة؟ وما هو الحد الفاصل بين علم الإنسان وعلم الله سبحانه وتعالى؟... إنَّ الذي يطّلع على ما يكتب وما يطرح من آراء حول العقل يشاهد اختلافاً كثيراً، فمن الكتاب من يؤمن بالعقل إيماناً مطلقاً، ويجزم بأنَّ العقل سيعرف في النهاية كل شيء وسيتعرف على كل السنن والقوانين التي وضعها الله سبحانه في الكون والحياة. ويُجمل أحد هؤلاء الكتّاب آراءه في النقاط التالية:

«١ - إنَّ الله حين طلب إلى العقل النظر في الكون للتعرف عليه إنما كان ذلك منه إيماء أو إثارة بأن للعقل البشري من القدرة بحيث يدرك - ولو بالتدريج - أبعاد هذا الكون بمن فيه وما فيه من كائنات، كما كان ذلك منه إيذاناً بأنَّ هذا الكون قابل أن يفهم عقلياً وبدون حاجة في بعض الحالات إلى النصوص.

٢ - إنَّ العقل البشري سوف يدرك من حقائق هذا الكون مقاصد المولى سبحانه وتعالى من خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه، كما سوف يدرك من كيفية بناء الله لهذا الكون، السنن والقواعد التي أقام الله عليها هذا البناء المحكم من حيث هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، وإذا كانت سنن الله لا تتغير والقواعد التي أقام عليها هذا البناء ثابتة أبد الدهر، فقد أصبح في مكنة العقل البشري الاهتداء إلى هذه القواعد وممارسة الحياة على أساسٍ منها.

٣ - إنَّ العقل البشري لن يدرك كل حقائق الكون بمن فيه دفعة واحدة، وإنما سوف يدرك هذه الحقائق في مراحل مختلفة من الحياة،

ومعنى ذلك أنَّ العقل البشري لن يكف عن البحث والدراسة ما دامت هناك أشياء لا تزال مجهولة، ولا يزال هو يجدّ في البحث عنها»[1].

ومن الكتّاب من يقف بوجه المقولات السابقة بحزم، ويؤكد على أنَّ للعقل حدوداً يجب أن يقف عندها، وينبغي أن لا يجهد الإنسان نفسه وراء معرفتها لأنّه لا سبيل له إلى معرفة ذلك ويعتبر ذلك بمثابة «صون الطاقة العقلية من أن تتبدد وراء الأمور الغيبية التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها، لأنّه لا مجال للعقل في اكتشافها، وإنما اكتشافها عن طريق النبوة، وطالما نؤمن بالنبوة، وجب الإيمان بما أتت به من أمور غيبية»[2].

أمام هذين الموقفين يجب أن لا نفرط في التفاؤل، كما ينبغي أن لا نوغل كثيراً في التشاؤم، فخير الأمور أوسطها، فقد اهتم الإسلام بالعقل والعلم والتفكير وطلب الله سبحانه إلى الإنسان أن يبذل وسعه وجهده في سبيل معرفة الأسرار الكونية، والتأمل في الدقة والنظام التي تتصف بها مخلوقات الله، وأخبر الله تعالى المسلمين بمستقبل الاكتشافات العلمية التي سيحققها الإنسان، واعتبر سبحانه تلك الاكتشافات دليلاً على علمه وقدرته وإرادته ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣]. . . هكذا هو الإسلام يبشر باتساع أفق الإنسان العقلي وتحقيقه الانتصارات العلمية في المستقبل ولكن بإرادة الله سبحانه وقوته، ليريهم عظمته وقدرته جلّ شأنه، فباب المعرفة في الإسلام مفتوح للإنسان، وطلب العلم مرغوب فيه مؤكّد عليه حتى ولو كان في الصين، ولكن لهذا العقل حدوداً يقف عندها، وسيقصر حتماً في معرفة كل شيء، ولو عرف العقل كل شيء لأصبح

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي - سعيد إسماعيل علي ص١٩٢.

(٢) أهداف التشريع الإسلامي د.محمد حسن أبو يحيى ص٥٦٨ - دار الفرقان للنشر عمان جبل الحسين ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الإنسان هو الإله، وهذا ما لا يمكن قبوله، إذ أن المخلوق لا يمكن أن يصل إلى مستوى الخالق كما أنّ المصنوع لا يمكن أن يصل إلى مستوى الصانع الذي هو المبدع والمبتكر والمهندس. فيجب أن لا يأخذنا الزهو والغرور كثيراً، فما عرفناه ليس إلاّ قطرة في بحر، وإننا أمام هذا العالم الواسع كطفل يحبو على شاطىء المحيط..

تنمية عقل الإنسان:

ليست هناك طريقة محدّدة لتنمية عقل الإنسان المسلم، وليست هناك قوانين معيّنة تنحصر التنمية العقلية في اطارها، وإنما هناك تعليمات وتوجيهات وأساليب نتوصل إليها بالبحث والنظر والتأمل في التراث الإسلامي، الذي يمثل القرآن الكريم والحديث الشريف، والتوجيهات الإسلامية بصورة عامة، ويمكننا إجمال بعض هذه الأساليب في النقاط التالية:

١ - المحافظة على عقل الإنسان من كل ما يزيل العقل أو يؤثر في مدى إدراكه أو تفكيره أو إبداعه، كتعاطي المواد المسكرة كالخمر والحشيشة والأفيون وغيرها من العقاقير المغيبة للعقل.

٢ - تهيئة الأجواء الملائمة للتفكير الصحيح، كسلامة الجسم من الأمراض التي تؤثر على فاعلية العقل تأثيراً كبيراً، وتغذيته بالغذاء الجيد المفيد، وابتعاد المسلم عن المعاصي، وتقرّبه إلى الله سبحانه بالطاعات والعبادات ويجب إبعاد الإنسان المسلم عن كل عوامل الضغط والركود التي تحجر عقله وتعيقه عن النمو والإبداع كالصخب والضجيج والتفكير الجمعي.

٣ - تدريب الطاقة العقلية على طريقة الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة كما هي ويتم ذلك بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: هي وضع المنهج الصحيح للنظر العلمي لا الخرافي وذلك بالتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه والابتعاد عن الظن في الحكم على الأشخاص والأشياء: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٦] ونبذ التقليد الأعمى ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]. واتباع الطرق والوسائل العلمية في الوصول إلى الحقائق كدراسة المنطق الذي يعرّف بأنّه صون العقل عن الخطأ، واتباع طريقة القياس وطريقة الاستقراء، والبدء بالمقدمات للوصول إلى النتائج وغيرها من الطرق والوسائل العلمية.

الوسيلة الثانية: تدبر نواميس الكون لأنها تطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم، وهذا التنظيم وهذه الدقة تتمثل في مخلوقات الله في الكون والحياة والإنسان. إن التأمل في خلق الله يرينا عظمة الله سبحانه، كيف تكون حياة النباتات، ثمارها، ألوانها، مذاقاتها، مواسم نضوجها، الحيوانات، الطيور، الأسماك، الإنسان ذلك المخلوق العجيب الذي خلق الله الأرض وما فيها والسماء وما فيها لأجله ولسعادته إن مجال التأمل والتفكير في هذه الأشياء واسع ورحيب، وكلما تأملنا أكثر ازدادت معرفتنا أكثر ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]. إن تأمل النظام الإلهي الدقيق يدعونا إلى التفكير الدقيق وإلى العمل المنظم المتواصل، ومحاولة تجنب الوقوع في الكثير من الأخطاء والاشتباهات.

٤ - توجيه العقل توجيهاً حضارياً في كل مرافق الحياة، ليتعرف على ما هو حضاري وما هو غير حضاري، حتى يتطبع العقل بطابع الحضارة، وينهج في تفكيره نهج الحضارة والرقي والتقدم. ويتم ذلك بتفصيلات لا مجال لذكرها الآن، وقد نتعرض لها في المستقبل، تعرض

المفاهيم والقيم الحضارية، وبعض الصفات والنماذج الحضارية، ليحذو العقل حذوها، ويتخذها منهجاً في مسيرته الفكرية، ثم تغذية العقل بصورة مستمرة ومتواصلة بالأفكار السليمة والعلوم والمعارف والمعلومات المفيدة، فكلما تغذى عقل الإنسان المسلم، فإنه سيبدع ويختار ما هو أفضل وأجمل.

٥ - الجمع بين تمام الوعي وكمال التأمل والتفكير. إن وصول الإنسان في وعيه وقدرته العقلية إلى أقصى حد، لا يعني انشداداً ذهنياً لديه، وينبغي أن لا يؤدي به إلى توترات عصبية تجعله في حالة بلبلة وقلق وهذيان، إنَّ تمام الوعي يعني سيطرة الإنسان المسلم على عقله وحواسه وعواطفه بكل جدارة وحزم، يجمع إلى ذلك كله التأمل الدقيق والمثمر والتفكير المنتج في الطبيعة التي خلقها الله، وفي حركة الحياة بكل سرعتها وتطوراتها، متجاوزاً في ذلك ضجيجها وعجيجها. إن كثيراً من الأفكار الناجحة نتجت عن التأمل الواعي للإنسان مع نفسه، فيصل إليها بالحدس والإلهام وتوفيق الله سبحانه وتعالى.

إنَّ مجالات تنمية عقل الإنسان المسلم كبيرة وواسعة بسعة الحياة أو أكبر من ذلك بكثير، يستطيع المسلم أن يلج هذه المجالات ويخرج منها ظافراً، وذلك بتدبر الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة وسيرة الأئمة والصالحين، والنظر في ملكوت السموات والأرض، ومطالعة ما جاء من الحكم والآثار في بطون الكتب والمصنفات، وغيرها من الأمور التي تزيد في وعي الإنسان وتكامل عقله، وتزيد تفكيره بصيرة وحكمة ووعياً.

الجمال في الإسلام[1]

لعلّ أهم عامل في التغيير الحضاري للأفراد والشعوب على حد سواء هو عامل الجمال ويعني ذلك كيفية إدراك الجمال. كيفية حب الجمال، مقاييس الجمال الظاهري.

رؤية الإسلام للجمال الحسي الظاهري والانطلاق من ذلك كله للتعرف على مواقع الجمال في المواقف والتعامل والسلوك.

كيف ينبغي لنا أن نلتزم أصول الجمال في كل تصرفاتنا وعاداتنا وأخلاقياتنا، وفوق ذلك كله كيف نتربى جمالياً، وكيف ننمي حاسة الذوق الجمالي لدينا ولدى الآخرين، بحيث تنطبع ظواهر الناس وبواطنهم بحب الجمال والانتشاح به، وتنغمر الحياة كلها بالجمال الحسي والنفسي والاجتماعي، فترى الجمال في الفرد وفي سلوكيات الناس كعادات ثابتة لديهم، وتصطبغ مظاهر الحياة المادية بكل مظاهر الروعة والجمال في العمارات والمؤسسات والمنتزهات وغيرها، بحيث لا تسمع صوتاً نشازاً، ولا ترى صورة قبيحة، ولا سلوكاً كريهاً، هذا ما نؤمن به ونحلم بتحقيقه.. كيف ينبغي لنا ذلك؟ وما السبيل إلى تحويل هذه المفاهيم إلى واقع مترسخ في ذهنيات الناس وفي قلوبهم بحيث تصبح جزءاً من طبائع الناس وسلوكياتهم التي لا يستطيعون الانفصال عنها.

أعتقد أن أهم نقطة في الموضوع والتي يجب أن ننطلق منها في

---

(١) نشر في مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٧٦/١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م. دمشق.

التربية الجمالية هو الانكباب بالدراسة والتحقيق حول الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة التي تشير إلى الجمال وتدعو إليه، فكلما استطعنا استقراء هذه الآيات والأحاديث واستيعابها وتطبيقها، فإننا سنهتدي إلى مواطن الجمال، ونلتزم مواقع الجمال في كل زمان ومكان.

الجمال في القرآن الكريم:

الجمال والحسن والزينة كلمات مختلفة تؤدي إلى معانٍ متقاربة، وقد أشار القرآن الكريم إلى كل واحدة من هذه الكلمات لتؤدي المعنى المطلوب منها، سواء كان المعنى مادياً أو معنوياً فقد ورد لفظ الجمال بصيغتين في القرآن، في الأولى استعمل القرآن المصدر (الجمال) في موضع واحد وفي الثانية استعمل الصفة المشبهة (جميل) في سبعة مواضع، أما المصدر فهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥ - ٦].

أما المواضع السبعة التي يرد فيها لفظ (جميل) فهي:

١ - ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨].

٢ - ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣].

٣ - ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

٤ - ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

٧ - ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

لفظ جميل في هذه المواضع جاء صفة لموصوف قبله[1].

---

(١) من سمات الجمال في القرآن الكريم. سيد خضر ص٢٥. دار الصحابة للتراث =

وقد وردت لفظة الجمال في القرآن الكريم بالمعنيين المادي والمعنوي، فالمعنى المادي في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]. ورد في تفسير هذه الآية الجمال: الزينة وحسن المنظر قال في المجمع: الإراحة رد الماشية بالعشي من مراعيها إلى منازلها والمكان الذي تُراح فيه مراح، والسروح خروج الماشية إلى المرعى بالغداة يُقال سرحت الماشية سرحاً وسروحاً وسرّحها أهلها. انتهى. يقول تعالى: «ولكم في الأنعام منظر حسن حين تردونها بالعشي إلى منازلها وحين تخرجونها بالغداة إلى مراعيها»[1].

إن منظر الصباح وشروق الشمس ومسير الأنعام في هذا الوقت، ومنظر الغروب ومسير الأنعام ومن خلفها أشعة الشمس الغاربة التي تخترق المنافذ حول أجسام الحيوانات والرجال الذين يسرحون بها أو يعودون بها إنه منظر جميل يؤثر في النفس ويأخذ بمجامع القلب، وأشار القرآن الكريم في الآيات الأخر إلى المعنى الروحي والمعنوي للجمال في السلوك الجميل كالصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل والسراح الجميل، فهذه صفات معنوية وأخلاقية جميلة ومحببة يدعونا الإسلام إلى التحلي بها.

أما كلمة (حسن) فقد وردت في القرآن الكريم في (١٩٤) موضعاً بصيغ الاسم والفعل ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] [2].

= بطنطا ط١ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(١) الميزان في تفسير القرآن محمد حسين الطباطبائي ج١٤ ص٢١١.

(٢) من سمات الجمال في القرآن الكريم سيد خضر ص٢٦.

وقد وردت مادة (زين) في القرآن في (٤٦) موضعاً في صورة الاسم والفعل:

أ - **الزينة الحلال المندوب إليها**: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف: ٣١]. ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ [الحجرات: ٧].

ب - **الزينة التي تحلّ في أحوال وتحرم في أخرى**: وهذا النوع من الزينة على قسمين، الأول بحسب نية العبد فيه، والثاني في أيام معلومة هي الحج والعمرة، ومن الأول قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ [آل عمران: ١٤]. ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦ ﴾ [الكهف: ٤٦]. ومن الزينة التي تحل في موضع وتحرم زينة المرأة ومن هذا القبيل الأشياء التي تحرم على الحاج أو المعتمر أثناء قضاء الفريضة.

ج - **الزينة الحرام**: تزيين الشيطان لأوليائه أعمالهم ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ [الأنفال: ٤٨]. ويتكرر ذلك ﴿ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ في مواضع عدة[١].

إن عناصر الجمال المعروفة ثلاثة هي: ١ - التسوية. ٢ - الاتقان. ٣ - التناسب، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العناصر في آيات عديدة، فالتسوية في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقوله

(١) من سمات الجمال في القرآن الكريم، سيد خضر ص٢٣.

تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٨]. والاتقان في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

أشار الله سبحانه إلى التناسب في شكل الإنسان وهيئته، وهناك تناسب بين أجزاء الكون والحياة، يقول تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]. ويقول سبحانه: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣].

إن الله سبحانه وتعالى يدعونا كثيراً إلى التأمل في مخلوقاته والتمعن في آياته والتعرف على مكامن الجمال ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ٩ - ١٠].

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل: ٦٠].

إن الله سبحانه يدعونا إلى الأخذ بكل أسباب التجمل والجمال:

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الألوان المحببة والتي تعتبر سمة من سمات الجمال، ومن هذه الألوان اللون الأبيض، يقول سبحانه:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

ويقول سبحانه في وصف أهل الجنة:

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦].

ويُعتبر اللون الأخضر لوناً من ألوان الجمال الذي يبعث على الفرح والبهجة والسرور، يقول تعالى:

﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣].

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف: ٣١].

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦].

ونخلص من ذلك كله إلى أهم خصائص الجمال في القرآن الكريم وهي:

١ - يجب أن تكون رؤية المسلم للجمال رؤية إسلامية فحسب فما علّمه ربه وعلّمه الرسول أنه جميل وحسن فهو كذلك، وما علّمه ربه وعلّمه الرسول أنه قبيح فهو كذلك وإن زينه الشيطان وأولياؤه وروّجوا له وأقاموا لأجله الدنيا وأقعدوها.

٢ - إن الجمال في القرآن ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة إلى ما هو أعظم، إنه وسيلة للوقوف على بديع صنع الله تعالى، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]. ومن أجل تربية الإحساس الجمالي للمسلم نجد في القرآن آيات تدعونا دعوة صريحة إلى النظر إلى الجمال في خلق الله، وصولاً بذلك إلى اكتمال الإيمان، ونكتفي في ذلك بآية واحدة قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩]. فالمراد من النظر هنا

الاستمتاع بمعنى إشباع النفس بالجمال ليكون حافزاً لإدراك أسرار الصنعة الإلهية.

٣ - إن الجمال في القرآن وحدة هندسية متناسقة في كل شيء تترابط أجزاؤها ولا تنفصم عُراها وهي تشمل كل ما خلق الله تعالى لتكون سمة أساسية مشتركة في خلقه[١].

الجمال في الحديث الشريف:

جاءت الأحاديث الشريفة حول الجمال مكملة ومفصلة وموضحة للآيات القرآنية الكريمة. إن تجسد الجمال في الشخص أو في الشيء دليل على عظمة الله وبديع صنعه وحبه وعنايته عز وجل بهذا الشخص، يقول الإمام علي عليه السلام: «حُسن وجه المؤمن حسن عناية الله به»، ويقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه» ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل نساء أمتي أصبحُهنّ وجهاً وأقلهن مهراً»[٢] ويقول صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «عليكم بالوجوه الملاح والحدَق السود»، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ما بعث نبياً إلا حسن الوجه، حسن الصوت»، و«تصادف أن رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً حسن الوجه بهي الطلعة فمسح على رأسه ولحيته ودعا له قائلاً: اللهم جمّله وأدم جماله»[٣].

وورد في دعاء السحر لشهر رمضان المبارك: «اللهم إني أسألك من جمالك بأجمله وكل جمالك جميل، اللهم إني أسألك بجمالك كله».

---

(١) من سمات الجمال في القرآن الكريم - كيف يربي القرآن الحس الجمالي للمسلم سيد خضر ص٢٠ - ٢١.

(٢) الشاب بين العقل والعاطفة م١ ص٣٩ محمد تقي فلسفي ترجمة عياش حسين الأسدي الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م مؤسسة البعثة - بيروت.

(٣) القيم في الإسلام صلاح الدين البسيوني ص١٧٦.

وسترد فيما بعد أحاديث تدعو إلى الجمال والتجمل وإلى التربية الجمالية في الروح والنفس والأخلاق.

حقيقة الجمال:

إن الجمال المادي الظاهري والجمال المعنوي يكمل أحدهما الآخر، فالجمال الحسي حينما يملأ قلب الإنسان ويغمر روحه، فإنه يرقق إحساسه وينمي ذوقه ويؤدي به إلى حب الجمال أينما كان وخاصة في الأخلاق والسلوك، وهذه هي حقيقة الجمال التي تؤكد على عظمة الله وتُصلح أخلاق عباد الله، فيتوافق جمال الصور والأجسام مع جمال النفوس والأرواح وهذه هي قمة السعادة التي يريدها الإسلام تكامل المادة والروح تكامل النفس والجسم، يقول الإمام العسكري عليه السلام: «حُسن الصورة جمال ظاهر وحسن العقل جمال باطن»، ويقول الإمام علي عليه السلام: «ميزة الرجل عقله وجماله مروّته»، ويقول الإمام علي عليه السلام: «العلم جمال لا يُخفى ونسب لا يجفى».

إن الجمال الإلهي والكمال الإلهي يفيض بنوره وإشعاعاته على الكون كله فيستلهم المؤمن الجمال والكمال من الله سبحانه عن طريق الأنبياء والأولياء عليهم السلام (لا شك في أن صفة الجمال التي تطلق على الله تبارك وتعالى لا تعني الجمال الطبيعي أو التجمل المصطنع، وإنما المراد من الجمال الإلهي هو الصفات الجمالية والكمالات المعنوية التي تحتويها الذات الإلهية الأزلية بالنحو الأتم والأكمل فهو الخير المطلق والكمال المطلق والجمال المطلق وليس في ذاته المنزهة عن كل عيب ونقص إلا الكمال والجمال)[1].

---

(١) الشاب بين العقل والعاطفة محمد تقي فلسفي ص٤٧.

وقد آمن الكثير من الفلاسفة والمفكرين بهذا الجانب من الجمال المعنوي فقد (غلبت على سقراط الآراء الخلقية فعد (الجميل) مرادفاً (للنافع) ورأى أفلاطون أن الجمال شيء إلهي يرادف (الخير) وقرر أن روح الإنسان قد تمتعت بالجمال الأزلي في الحياة الأولى قبل أن تحل بالأجسام في هذا العالم)[١].

وكان (الخير) و(الحق) و(الجمال) عند سقراط ثلاثة مظاهر للحقيقة فالفكر ينبغي أن يتوجه إلى الحق، والسلوك إلى الخير والمشاهدة إلى الجميل. . . (اهتدى أفلاطون من جمال الطبيعة إلى جمال الأعمال ومنه إلى جمال العلوم والفنون)[٢]. وهكذا نرى أن الفلاسفة والمفكرين اهتدوا إلى جمال الأخلاق والأعمال بعد أن تعرفوا على جمال الطبيعة وأن الجمال عندهم كلمة مرادفة للحق والخير والنافع. .

واهتم المسلمون بالجمال ونقلوا اهتماماتهم هذه في كتبهم وأشعارهم ولكنهم ركّزوا على نقطتين مهمتين الأولى أن الجمال الظاهري يفنى ويزول والجمال الباقي هو في الدار الآخرة، والثانية أن الجمال الحقيقي هو جمال الآداب والأخلاق (وقد شغف به العرب أيضاً ولكنهم راعوا في فنونهم الروح الدينية الناطقة بأن نضرة الدنيا وزخرفها وبهجتها وزينتها صائرة إلى الزوال وأن الجمال الباقي والنعيم المقيم الخالد إنما هو في الدار الآخرة، ومن أجل ذلك بقي الفن يساير الدين جنباً لجنب حتى قال علماء الفرنجة إنهم لم يروا ديناً ائتلف مع الفنون ائتلاف الدين الإسلامي معها). يقول العقاد: (إن الجمال هو الحرية).

---

(١) الجمال ومثله العليا أحمد أفندي عبد الحميد السحرتي ص٩، ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م مكتبة ومطبعة الجندي مصر.

(٢) مقدمة صلاح الدين السلجوقي في كتاب الدين والجمال أبي النصر أحمد الحسيني مكتبة الانجلو المصرية - تاريخ الطبع لا يوجد.

يقول فيلسوف: (الجمال الحقيقي هو آشعة تنبعث من قدس آقداس النفس وتنير خارج الجسم مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتسكب الزهرة لوناً وعطراً)[1].

ويبين (روستان) الشاعر الفرنسي العظيم حقيقة الجمال فيقول: (حسبي من الجمال أنني رجل شريف مستقيم لا أكذب ولا أتلون ولا أداهن ولا أتملق وأن نفسي نقية بيضاء غير ملوثة بأدران الرذائل والمفاسد فلئن فاتني الوجه الجميل والثوب الهفّاف والوسام اللامع والجوهر الساطع فلم يفتني شرف المبدأ ولا عزة النفس ولا نقاء الضمير. إن الجبهة العالية يا سيدي لا تحتاج إلى تاج يزينها وإن الصدر المملوء بالشرف والفضيلة لا يحتاج إلى وسام يتلألأ فوقه)[2].

فجمال النفس الداخلي، جمال الروح وجمال الهدف وجمال الخلق هو الجمال الحقيقي وهو هدف الإسلام من الدعوة إلى الجمال وإلى حب الجمال. إن تخليص النفس من المفاسد والرذائل واتصافها بالفضائل هو الزينة الحقيقية وهو الجمال الحقيقي.

التربية الجمالية:

التربية الجمالية حاجة ملحة وضرورة من ضرورات الحياة بها يسمو الفرد ويرتقي المجتمع وبواسطتها يتم تطهير الفرد والمجتمع من كل ألوان القبح والبشاعة في المظهر والسلوك والوجدان، وبذلك سيكون الفرد بروحه ومظهره جميلاً يحيط به الجمال في كل جوانب الحياة. إن (التربية الجمالية تؤدي بالأفراد إلى حب الحياة والاندماج فيها بحيث يمارسونها بلا إسفاف ويسلكون فيه مسالك تدل على أنهم أسوياء فالإنسان الذي لا

(١) الجمال ومثله العليا أحمد أفندي عبد الحميد السحرتي ص١١ - ١٥.
(٢) المصدر السابق ص٢٢.

يذوق طعم الجمال قل أن يذوق بدوره طعم الفضيلة)... (وإذا كان الجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود بل أبرز سماته، فإنه يجب تأهيل الشخصية للإحساس بهذا الجمال وتربية الوجدان ليتوازن ذلك مع جوانب الشخصية المتكاملة، فالصلة وثيقة بين الجوانب المختلفة لأن ما يؤثر على الوجدان لا بد من أن يؤثر في الوقت نفسه على التفكير، وهذا من شأنه أن يؤثر بعمق في كل حياة الإنسان بجميع جوانبه.. فالتفكير الضحل كثيراً ما يواكب الوجدان الضحل)[1]. ولذلك تعالت الصيحات من قبل المفكرين المؤمنين والرساليين ومن الأشخاص الذين يهدفون إلى خير الإنسانية وتقدمها، تعالت صيحاتهم مطالبة بوضع مناهج للتربية الجمالية ينهض على أساسها الفرد والمجتمع بالواجبات على أكمل وجه، هادفين إلى الجمال في التفكير والوجدان والسلوك والأخلاق وهذا ما يوصل إلى الذروة في التقدم والازدهار الحضاري (إذا لم تمنح قابلية إدراك الجمال التربية اللازمة ولم تستخدم المناهج الكفيلة بتنمية هذا الحس الدقيق، فإنه سيؤول إلى الخمود والخفوت ويطمر إلى الأبد في ضمير صاحبه)... (يرتبط إدراك الجمال بتكامل الإحساس وتربية العواطف عند الناس، فبالنسبة التي يتقدم فيها مستوى العلوم والثقافة لبلد ما. وبالنسبة التي تنضج فيها مشاعر الناس يمكن إدراك الجمال الطبيعي والمصطنع وإحساس دقة الموجودات الجميلة ولطافتها)[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف ننمي الحس الجمالي لدى الإنسان المسلم؟ كيف نربيه تربية جمالية بحيث تصبح لديه قابلية استحسان الأشياء أو تقبيحها؟ قبل كل شيء يجب أن ننمي فيه قابلية التذوق الفني والجمالي وفق مقاييس الجمال المعروفة والتي أودعها الله سبحانه في الإنسان والأحياء والأشياء، وبهذه الملكة يرق إحساسه وتصفو نفسه ويستقيم

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي ص٩٠٧.

(٢) الشاب بين العقل والعاطفة محمد تقي فلسفي ص٣٥.

سلوكه و(لهذا كانت الدعائم الكبرى التي يقوم عليها صرح التربية والتعليم في الفكر الإسلامي: المشاهدة والنظر الصحيح في هذا الكون وما فيه من أسرار، وبهذا الصرح الكبير يمكن أن يدرب الفرد ليكون إنساناً قيمياً أي يستحسن ويستقبح يفضّل ويرفض، يستبيح لنفسه بعض الأشياء ويستنكر البعض الآخر كما أنه يكون لديه معيار لتقويم سلوك الآخرين ولم لا وقد أصبح نامياً ذوقياً)[1].

ويركز الإسلام على وجدان المسلم في تربية حاسة الجمال لديه بحب الأشياء الجميلة ولكن (جانب الوجدان ليس هو العاطفة وحدها، ولكنه التفاعل مع النفس والإنسان الآخر في مجتمعه ومجال الحياة الذي يعيش فيه، إنه في حقيقته إدراك الجمال والتعاطف معه وإدراك المستقبح والنفرة منه، إنه إدراك الحسن والعمل على أن يكون محسناً، وإدراك السوء والسعي إلى الابتعاد عنه، وإذا قيل الجمال فهو جمال السلوك، وجمال القول، وجمال الصنع، وجمال الإنسانية في الإنسان الآخر، وجمال العلاقات مع الغير، وجمال الطبيعة والاحتفاظ به، ينصح الإسلام المؤمن به أن يكون ذا وجدان مع نفسه ومع غيره، يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا ﴾ [الإسراء: ٧] ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾[2] [البقرة: ٢٦٣].

إن الهدف من التربية الجمالية في الإسلام هو نقل الإنسان المسلم من مرحلة إدراك الجمال المادي الظاهري للأشياء إلى مرحلة إدراك الجمال المعنوي في الصفات والعادات والأخلاق، وبذلك سيدرك الإنسان قيمة وجمال الأشياء التي أحلها الله سبحانه ويدرك قبح الأشياء وضررها في الأمور التي حرمها الله سبحانه عليه، بالتالي يؤدي به إلى اليقين والإيمان بتشريعات الله سبحانه وتعالى، إنه سيدرك حكمة التشريع

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي ص٩٠٩.

(٢) الدين والحضارة الإنسانية د. محمد البهي ص١٢٤ كتاب الهلال العدد ١٥٧.

الإسلامي ويطمئن إليه ويسير على بينة من ربه فالحسن ما حسنّه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، وبذلك ستؤدي هذه التربية الوجدانية الهدف المطلوب منها وهو الالتزام بكل ما هو حسن وجميل ونبذ كل ما هو مشين وقبيح ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

ويتم ذلك عبر عمليات متعددة من المشاهدة الواعية والعميقة والمتمعنة في أسرار الجمال التي أودعها الله سبحانه في هذا الكون وإدراك مقاييس الجمال، وامتلاك حاسة التذوق الفني، والتمتع بمظاهر الجمال الخلابة، ثم التحول بعد ذلك إلى معرفة حسن الأفعال وقبحها، ومقارنة ذلك وعرضه على التشريعات الإسلامية وإدراك سموها ونبلها والوصول بذلك إلى معرفة عظمة الله سبحانه، ومحاولة التجمل بكل ما هو جميل، وترك كل ما هو قبيح، ولذلك قيل (الجمال: هو التجميل والتزيين، وهذا يتحقق في الأخذ بالعادات الحسنة التي تتفق مع العقل والعرف، وهذه المرتبة غايتها حفظ الكرامة الإنسانية، والامتناع عن إذلالها وإهانتها، تجميل الإنسان وتحسينه من ناحية المظهر والمحافظة على الآداب العامة والعادات الاجتماعية)[1].

ومن خلال الملاحظة والتدقيق في مظاهر الجمال المادي والمعنوي، نشاهد أن هناك ارتباطاً بينهما قد ندرك سر هذا الارتباط أو لا ندركه، ولكن الحديث الشريف المنقول عن كتب الشيعة والسنة على حد سواء «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه»، يؤكد ذلك ويشير إلى الارتباط الوثيق بين جمال المظهر وجمال الآداب والأخلاق، فكما أن هناك تناسقاً بين بعض الألوان وتنافراً بين ألوان أخر كما يعرف ذلك الرسامون والخطاطون، فإن هناك ارتباطاً وثيقاً

---

(١) القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي د. فهمي محمد علوان ص١٠١ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٩م.

بين الفرائض الإسلامية بحيث يكمّل بعضها الاخر، وصفة (التكامل) من مميزات الشريعة الإسلامية، كما أن هناك تنافراً بين بعض الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة، هناك تنافر وتعارض بين الأمور التي حللها الله والأمور التي حرمها الله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وكما أن الأوساخ والنفايات تخرب الطبيعة الجميلة، وتلوث البيئة وتسبب الأمراض التي تؤدي إلى هلاك البشرية، وكذلك فإن الذنوب تجعل نقطة سوداء في قلب المؤمن تكبر وتتسع كلما كثرت ذنوبه وكبر إجرامه وبذلك سينحرف المعلم عن دينه ويخرج عن دائرة الإيمان ويصبح من الهالكين في الدنيا والآخرة.

ومن خلال الآيات القرآنية السابقة والأحاديث الشريفة التي ذكرناها ندرك أن الإسلام يربي وينمي حاسة الجمال المادي الظاهري لدى الإنسان في النظر إلى بديع خلق الله في الإنسان والأحياء والنباتات وحتى في النجوم التي تطرز السماء ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. ويربي الإسلام حاسة الجمال الأخلاقي في الأفعال والتصرفات الإنسانية وحتى في المحنة يجب على المسلم أن يستشعر حاسة الجمال في الإسلام، بحيث يُظهر الصبر الجميل والهدوء الرزين ويحتسب ذلك كله في الله ولله، وهل توجد محنة أشد من محنة زينب عليها السلام حينما رأت مصرع أخيها الحسين عليه السلام وذويها على رمال كربلاء، وخاطبت عبيد الله بن زياد (ما رأيتُ إلا جميلاً).

الجمال الأدبي - وهمٌ أم حقيقة؟[1]

أينما ألقيت ببصرك تجد الجمال الرائع مبثوثاً في حنايا الكون.. في الخضرة.. في الماء.. في الوجه الحسن.. في القصائد الشعرية.. في المقالات النثرية.. في الخط والرسم والتصوير.. وفي كل إبداعات الإنسان الجميلة على كل مظاهر الحياة المتعددة.. وهنا تكمن المسألة: فما هو تعريف الجمال يا ترى؟ وما هي مقاييسه بالضبط؟.. ليست الإجابة عن هذه الأسئلة بالسهلة الهينة!.. فلقد حيّر موضوع الجمال الفلاسفة والنقاد والناس أجمعين منذ عهد سقراط وأفلاطون ولحد الآن.. اختلفوا في أمره: هل الجمال شيء ذاتي شعوري في داخل كيان كل إنسان وخاضع لذوقه الخاص؟ أم هو موضوعي خارجي له مقاييسه وضوابطه التي تحدد معالمه، ولا دخل للشعور والرأي الشخصي في تقييمه؟

انقسم الفلاسفة ونقاد الأدب بين هذين الرأيين، ومنهم من جمع بينهما، ومنهم من عجز عن ذلك كله، وادعى بأنَّ الجمال فكرة غير قابلة للتعريف، يقول أناتول فرانس: اعتقد أننا لن نعرف بالضبط أبداً لِمَ كان الشيء جميلاً.

وهذا البحث محاولة للغوص في هذا الموضوع الشائك والخروج منه بنتائج عملية ومحددة، مع طرح نماذج للجمال في الأدب مع بعض الأفكار والمفاهيم النقدية حول الجمال لبعض النقاد القدامى والمحدثين ممّا يلقي أضواءً وعلامات كاشفة للأدباء والشعراء وكل متذوقي الفن

---

(١) نشر في مجلة البلاد.

لينحوا منحى الجمال فيما يكتبون بأقلامهم من روائع الفكر والأدب أو يرسمون بريشتهم التحف الفنية النادرة، أو يكتبون روائع الخط العربي الجميل. وبادىء ذي بدء نعرض لوجهات النظر المختلفة حول حقيقة الجمال والتي تتمثل بثلاث نظريات هي:

النظرية الأولى: «الجمال حقيقة موضوعية وواقعية»:

أصحاب هذه النظرية يؤمنون بأنّ الجمال عبارة عن ظاهرة واقعية في الخارج، وليس للذهن أو الشعور أيّ دور في صنع هذه الظاهرة، سوى أن الذهن لوحة تنعكس عليها هذه الظاهرة العينية كالمرآة التي ليس لها سوى عكس صور الأشكال التي تقع في دائرتها.

ووضع أصحاب هذه النظرية مقاييس وضوابط يُعرف بها الجمال، والذي يتمثل في بعض الحالات بالتوازن والتناسق والترابط والانسجام والوضوح، وقديماً قال أفلاطون بجمال الأشياء مستقلة عن توافقها مع رغباتنا، وأنَّ الجمال الذي نخلعه على الأشياء بحسب موافقتها لنا ليس سوى جمال عارض، أي أننا لا نستطيع أن نسميه جمالاً، وإنما هو حالة شعورية خاصة، ومن ثم فالجمال عند أفلاطون موضوعي لا شخصي، أي أن الميزان في تقدير الأشياء الجميلة ميزان مستمد من طبيعة الأشياء نفسها، فلا يقوم على هوى الشخص أو مزاجه[1].

وجاء طاغور ليعتقد بأنّ الإنسان لا يتذوق الجمال ويدركه على حقيقته إلاّ أن يتجرد عن انفعاله الشخصي ومصلحته الذاتية وينصرف بكلّه إلى الواقع، لأنّ الجمال مادة وأصولاً وقواعد، أمّا هدف الفن والجمال فهو تحقيق سعادة الإنسان وكماله[2].

---

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي - الدكتور عز الدين إسماعيل ص٦٨ - ١٩٧٤م - الطبعة الثالثة.

(٢) مذاهب ومصطلحات فلسفية محمد جواد مغنية ص٣٨.

ومن نقاد العرب القدامى الذين اعتقدوا بهذه النظرية، أبو حيان التوحيدي، الذي وضع خمسة عناصر تشترك في تكوين الجميل وتحدد أبعاده وهي: ١ - العنصر الطبيعي (الأساس الحسي). ٢ - العنصر الاجتماعي (الأساس الاجتماعي). ٣ - العنصر الديني أو الأساس الديني (الشرع). ٤ - العنصر العقلي (الأساس الفكري). ٥ - العنصر الجنسي (الشهوة). فالجميل قد يكون جميلاً بحكم تكوينه الطبيعي، وقد يكون جميلاً لأنَّ الدين دعا أو لفت إليه، وقد يكون جميلاً لأنَّ البصيرة والعقل أدركا هذا الوصف، وقد يكون جميلاً كذلك لأنه يسد الرغبة الشهوانية في الإنسان[١].

وهكذا فإن أصحاب هذه المدرسة الجمالية، لا يؤمنون بأنّ الجمال شيء ذاتي وشعوري مرتبط بميول ورغبات الأفراد، بل هو جمال حقيقي واقعي موجود خارج ذواتنا، وقد أصبح الشيء جميلاً نظراً لتوافر مواصفات الجمال فيه بالأصل، ووضع هؤلاء المفكرون أسس ومواصفات الجمال الخارجي وتفننوا في وضع هذه الأسس والقواعد. كتب ابن الجوزي في مستهل كتابه (أخبار الظراف والمتماجنين) ما يلي: «الظرف يكون في صباحة الوجه ورشاقة القد ونظافة الجسم والثوب وبلاغة اللسان وعذوبة المنطق وطيب الرائحة والتقزز من الأقذار والأفعال المستهجنة، ويكون في خفة الحركة وقوة الذهن وملاحة الفكاهة والمزاح ويكون في الكرم والجود والعفو وغير ذلك من الخصال اللطيفة، وكأنّ الظريف مأخوذ من الظرف الذي هو الوعاء، فكأنه وعاء لكل لطيف»[٢].

النظرية الثانية: «الجمال حقيقة ذاتية وشعورية»:

وهي النظرية التي تؤكّد على أنّ الجمال عبارة عن التلقي والإدراك

---

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي - ص١٤١.

(٢) دراسات فنية في الأدب العربي - الدكتور عبد الكريم اليافي.

الذهني، أي جمال الشيء في الذهن فقط، وليس له أي وجود خارجي، فالجمال هو السحر الكامن في قوانا الشعورية، لا في مداركنا العقلية. وآمن أصحاب هذا المذهب بالجانب الذوقي والذاتي والشعوري للإنسان في إحساسه بالجمال، ورفضوا أن يضعوا حدوداً وشروطاً للجمال، بل تركوا ذلك لذوق الفرد الشخصي، وقالوا باختلاف الأفراد في تحديد الجمال تبعاً لاختلاف أذواقهم ومشاعرهم، ولهذه النظرية أنصار كثيرون من نقاد الفكر والفن والأدب، يقول كانت: إنَّ الجمال منفصل عن شعورنا لا يعدّ شيئاً. ويقول فاليري: علم الجمال هو علم الحساسية، والحساسية برأيه كل تفكير فلسفي في الفن... فلذلك يعتقد أصحاب هذه النظرية بأن إبداعات الجمال في الفن والأدب، إنما هي تعبير عن الجمال الذي يُتصور في النفوس، يقول الرسام كستناري: «فالفن تعبير عن ذات أنفسنا من أجل أنفسنا»... وهكذا فإنَّ الجميل ما ارتاحت إليه النفس واطمأن له القلب وانبهرت به الجوارح، فقد تكون الصورة جميلة برأي شخص وقبيحة برأي الآخر، وقد تكون القطعة الأدبية رائعة بنظر شخص وعادية بنظر الآخرين.. يقول الجرجاني: «ولو قيل لك كيف صارت هذه الصورة، وهي مقصورة عن الأولى في الأحكام والصنعة، وفي الترتيب والصيغة، وفيما يجمع أوصاف الكمال وينتظم أسباب الاختيار، أحلى وأرشق، وأحظى وأوقع، لأقمت السائل مقام المتعنت المتجانف، ورددته ردّ المستبهم الجاهل، ولكان أقصى ما في وسعك وغاية ما عندك، أن تقول موقعه في القلب ألطف، وهو بالطبع أليق، ولم تعدم مع هذه الحال معارضاً، يقول لك: فما عبت من هذه الأخرى؟ وأي وجه عدل بك عنها؟ ألم يجتمع لها كيت وكيت؟ وتتكامل فيها ذيه وذيه؟ وهل للطاعن إليها طريق؟ وهل فيها لغامز مغمز؟ يحاجك بظاهر تحسه النواظر، وأنت تحيله على باطن تحصله الضمائر»[1].

(١) المصدر السابق ص١٦٦.

ويؤمن الغزالي بالجانب الذاتي والشعوري في إدراك حقائق الجمال حيث يقول: «والقلب أشد إدراكاً من العين وجمال المعاني المدركة بالفعل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ»[1].

ويستند أصحاب هذا الرأي في التدليل على نظريتهم بصعوبة وضع مقاييس ثابتة وقواعد محددة يقاس بها الجمال في كل مظاهر الحياة.

النظرية الثالثة: «الجمال وجود وتذوق»:

وهي النظرية التي تجمع بين النظريتين السابقتين، وتؤكد على أنّ للجمال بعدين أساسيين: بُعدٌ داخلي ذاتي نابع من شعور الإنسان وتذوقه الشخصي، وبُعدٌ خارجي موضوعي. وأن الجمال ظاهرة شأنها شأن الظواهر والحقائق الخارجية، وحسب هذه النظرية فإنّ تذوق وإحساس الإنسان بالجمال شرط، ووجود خارجي وموضوعي لمواصفات الجمال شرط آخر، ولذلك نرى الفيلسوف أفلوطين يشترط تعادل الرائي والمرئي أو على الأقل تناسبهما حتى يمكن رؤية الجمال وأنه لا قيمة للنور إذا كان كل الناس عمياناً!![2].

الإسلام والجمال:

الجمال منحة من منح الله سبحانه طبعت أرجاء الكون كله، ابتداءً من الإنسان... وانتهاءً بكل ما يحيط به من مخلوقات.. الجمال المتمثل في خرير المياه.. وفي الخضرة الوارفة وفي الورود الزاهرة في السهول

(١) المصدر نفسه ص١٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص٧١.

والهضاب والجبال... وفي النسيم العليل الذي يرطب الأجواء.. وفي الألوان الزاهية التي تطبع أجنحة الطيور أو زعانف الأسماك بتناسق وانسجام تامين تشهد على عظمة الله سبحانه.

وقد حثنا سبحانه على التأمل في مظاهر الجمال الخلّابة التي تكتنفنا وتحيط بنا، وتبعث البهجة والسرور في قلوبنا، والآيات الكريمة في هذا المجال عديدة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[النحل: ٦]... ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾[الملك: ٥]... ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾[الأنعام: ٩٦]... ﴿ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: ٩٩].

وخلق الله الإنسان في أجمل صورة وأحسن تقويم، وفضّله على جميع الكائنات ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، وخلق الله سبحانه كل شيء على أتقن صورة وأجمل حالة ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾. وكان الرسول ﷺ يطلب من بعض الشباب الذين يقدمون على الزواج أن يشاهدوا زوجاتهم حتى يقتنعوا بجمالهن. ومن المستحبات الواردة في الفقه الإسلامي، في موضوع الصفات المفضلة في إمام المصلين، إضافة لعدالته وحسن قراءته، جعل الإسلام صبوح وجهه من الأمور المفضلة على غيره.

وقد تناول الفكر الإسلامي مسألة «الحسن والقبح العقليين» بالتفصيل، وخاصة عند المعتزلة، إضافة إلى اتفاق جميع المسلمين على أن العقل مصدر من مصادر التشريع الإسلامي، والحديث المشهور: «إنّ لله حجتين على الناس: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأمّا الباطنة فالعقول».

ولم يتوقف الإسلام عند حدود الجمال الجسدي والمادي الظاهري، بل تعدّاه إلى الحثّ على اكتساب الجمال في صدق القلوب،

وطهارة النفوس، وطيبة اللسان، وحسن الشمائل والأخلاق، والآيات والأحاديث الشريفة في هذا المجال أكثر من أن تُحصى. وقد أشار إلى ذلك الشاعر عمر بن معد يكرب الزبيدي بقوله:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رُديت بردا
إنَّ الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا

وجاء الإسلام إلى الناس كافة ومعجزته القرآن الكريم الذي يعبّر عن السمو البلاغي الرفيع والجمال الأدبي الرائع، ومحتواه الفكري والمعنوي السامق الذي أعجز العرب أهل الفصاحة والبلاغة، وقد أثرت فصاحة وبلاغة القرآن الكريم في الأدباء والشعراء بحيث اتخذوا من القرآن الكريم ميزاناً يزنون به شعرهم ونثرهم، ويميزون بواسطته الجيّد من الرديء، والغث من السمين في مقطوعاتهم الأدبية، فحينما سمع بعضهم قول أبي تمام:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

أخذ وعاء وذهب يطلب منه في شيء من السخرية قطرات من ماء الملام هذا، فيجيبه أبو تمام بأنه لن يعطيه ما يريد قبل أن يأتيه بريشة من «جناح الذل» وهو يشير إلى الآية القرآنية ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[الإسراء: ٢٤].

ولا نستطيع أن نعرض لصور الجمال في القرآن الكريم لأنّه الجمال كله، وقد تكّفلت الكتب التي تبحث في الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم بتفصيل ذلك.

وخلاصة الأمر أنّ الإسلام يؤمن بوجود جمال موضوعي في الخارج متمثل بسائر الكائنات، ولذلك يدعونا الله سبحانه دائماً إلى التفكر والنظر في السماء في البحار والمحيطات في الغابات والبساتين في الطيور التي تحلق في السماء في الأسماك التي تسبح في البحر، في الجبال الشاهقة..

في السهول المنبسطة، إن لفت النظر من قبل الله سبحانه إلى صور الإبداع في الكون دلالة على وجود جمال خارجي يتفق عليه الجميع.

ومن جهة أخرى لم يغمط الإسلام حق العقل والذوق الإنساني في الإحساس بالجمال والتنعم بمعانيه وصوره البهيجة، وحثّ الإسلام كثيراً على استعمال العقل والفكر لمعرفة حقائق الأشياء وجمالها، بل جعل ذلك حقاً من حقوق الإنسان المشروعة، والآيات الكريمة التي تحث على إعمال الفكر والعقل كثيرة مبثوثة بين سور القرآن الكريم.

مقاييس الجمال الأدبي:

إنّ مسألة تذوق الشعر والنثر وإخضاعه للمقاسات الجمالية، بدأت مع بدايات نضوج الشعر العربي حيث كان بعض الشعراء يهتم بتنقيح قصائده وتهذيبها قبل أن يعلنها على الناس، وكانوا يُسمون آنذاك بعبيد الشعر، وقول الشاعر الحطيئة في هذا المجال: «خير الشعر الحولي المنقح المحكك» شاهد صدق على ما نقول فالحولي هو ما مرّ على القصيدة حول أو عام عند الشاعر يفكر فيها ويصححها ثم يعلنها على الناس.

كما أن سوق عكاظ الأدبي الذي كان يُعقد أيام الحج حيث يجلس نفرٌ من كبار الشعراء للتحكيم، ثم يُلقي الشعراء قصائدهم الواحد تلو الآخر وهكذا، إضافة إلى ذلك فإنّ توفر الحس الجمالي في نقد الشعر والنثر أدّى إلى تنامي روح التمييز الأدبي لدى الشعراء وعند العرب بصورة عامة، وأنّ المقولة المشهورة والتي تتكرر دائماً «أفضل بيت قالته العرب» لهي دليل قاطع على وجود حالة التذوق الجمالي عند العرب.

وحينما بُعث النبي محمد ﷺ برسالة الإسلام، ونزل القرآن الكريم على العرب، لفت انتباههم، وسحرهم بإعجازه اللغوي الفريد، فهب

المسلمون يتدارسونه ويتمعنون بآياته، وقام الصحابة والعلماء يتدارسونه ويكتشفون مواطن الجمال والاعجاز في آياته، فظهر علم البلاغة الذي كان هدفه الأوّل معرفة اعجاز القرآن الكريم، ثم التعرف على الكلام الجميل أينما كان شعراً أم نثراً!... ويُعتبر علم البلاغة دعماً لرأي القائلين بالجمال الموضوعي الخارجي، وقد تفنن علماء البلاغة في وضع قواعد الكلام البليغ والمقاييس التي بها يُعرف الأدب الجيد من الأدب الرديء من خلال علوم البلاغة الثلاث: البيان والبديع والمعاني. وقد أسرف هؤلاء العلماء في وضع المسميات والتقسيمات بحيث أخرج هذا العلم عن حدّه وتحوّل في بعض الكتب البلاغية القديمة إلى رموز وطلاسم.

وحينما برزت ظاهرة التأليف في الأدب العربي وظهر النقاد الكبار إلى جانب الشعراء والكتاب، انقسم النقد إلى قسمين: قسم عبارة عن مختارات شعرية يتوسم فيها الجمال الأدبي، ككتب المفضليات والأصمعيات ودواوين الحماسة، والقسم الثاني عبارة عن كتب نقدية بالمفهوم النقدي، حيث تطرح الآراء والأفكار النقدية في شعر الشعراء، ويقوم النّقاد أيضاً بعمل مقارنة وموازنة أدبية بين الشعراء.

وحينما نبدأ بمطالعة هذا التراث الأدبي الضخم نرى فيه المفاهيم النقدية الرائعة، حيث يضع النقاد مقاييس الجمال الأدبي وشروط الكلام البليغ، وتوجيهات أدبية رائعة للشعراء، ثم تبيان لما يقع فيه الشعراء من أخطاء في الألفاظ أو المعاني الشعرية التي تُبعد شعرهم عن مواطن الجمال، ولو تصفح شعراؤنا المعاصرون هذا التراث الضخم، لما وصل الشعر الحديث إلى ما وصل إليه عند بعض الشعراء من هبوط في الأفكار والعبارات...

يقول الآمدي: «وليس الشعر عند أهل العلم به إلاّ حسن التأتي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات

والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه، فإنّ الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلاّ إذا كان بهذا الوصف، وتلك طريقة البحتري»[1].

وقد أعجب الناس بقول البحتري حين جمع ثلاث مطابقات في قوله:

وأمة كان قبح الجور يسخطها   دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها

فقبح في مقابل حسن، والجور في مقابل العدل، والسخط في مقابل الرضا.

وكذلك أعجب الناس بقول المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي   وأنثني وبياض الصبح يغري بي

حيث جمع ثلاث مطابقات فصارت مقابلة حسب تعريفات علماء البلاغة.

وفي توجيهات النقاد القدماء للشعراء، قول أبي هلال العسكري: «فإذا عملت القصيدة فهذبها ونقحها بإلقاء ما غثّ من أبياتها ورث ورذل، والاقتصار على ما حسن وفخم بإبدال حرف منها بآخر أجود منه حتى تستوي أجزاؤها وتتضارع هواديها وأعجازها، فقد أنشدنا أبو أحمد رحمة الله عليه، قال: أنشدنا أبو بكر بن دريد:

طرقتك عزة من مزار نازح   يا حسن زائرة وبعد مزار

ثم قال أبو بكر: لو قال يا قرب زائرة وبعد مزار لكان أجود، وكذلك هو لتضمنه الطباق[2].

أمّا النقاد المحدثون، فقد تفننوا أيضاً في وضع ركائز الجمال الفني

---

(١) المصدر السابق ص١٥٠.

(٢) المصدر نفسه ص٢٣٤.

للأدب وتبيان المفاهيم الجمالية للشعر العربي، كجمال الفكرة وجمال اللفظة وجمال العبارة وجمال الأسلوب، فمثال جمال العبارة:

١ - تقديم العامل على المعمول (الفاعل قبل المفعول به).

٢ - الربط بين الكلام بواسطة الحروف ولا سيما حروف الجر وحروف المعاني، تجعلها في انتظام مرصوف.

٣ - الفصل والوصل القائمين على العطف.

٤ - الوقع الموسيقي في العبارة.

٥ - الايجاز: وهو عبارة عن تقصير الجملة بمعنًى مكثف مشحون بكلام قليل، إما عن طريق الحذف كما في حذف الصفة أو الموصوف، أو بحذف المضاف أو الشرط وجوابه أو حتى بحذف جملة أو أكثر[1]، يقول النويري: (وأصبح البليغ لا يسمى بليغاً إلاّ إذا جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل). وهذا ما يسمى بالايجاز الذي وردت أحاديث شريفة في مدحه. ومثال جمال اللفظة: الايقاع والعلاقات، فمثال الايقاع الطباق في الأبيات الشعرية السابقة، والعلاقات التي هي علاقة اللفظة المفردة بغيرها من الألفاظ كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [هود: ٤٤].

وهناك تقسيم آخر للمفاهيم الجمالية في الشعر العربي كمفهوم الصورة، ومفهوم العاطفة، ومفهوم الموسيقى، ومفهوم الفكرة. فمثال مفهوم العاطفة قول المتنبي:

واحــرّ قلبــاه ممّــن قلبــهُ شبــمُ ... ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وقول أبي فراس:

لـــــولا العجـــــوزُ بمنبـــــجٍ ... مـــا خفـــتُ أسبـــابَ المنيّـــه

(١) الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس (في الأدب المقارن) د. شفيق البقاعي.

ولكـــان لـــي عمّـــا ســـألـ ـــتُ مـــن الفِـــدى نفـــسٌ أبيّـــه
لكـــــن أردتُ مُــــرادَهـــــا ولـــو انجـــذبـــت إلـــى الـــدنيّـــه
أمســـــت بمنبـــــجَ حُـــــرَّةٌ بـــالحـــزن مـــن بعـــدي حَـــريَّـــه

وقول ابن الرومي الذي أصابه الموت مرتين في فقره وفي فاجعته بأولاده:

أأفجــع بـــالشبـــاب ولا أعـــزّى لقـد غفـل المُعَـزي عـن مصـابـي

وقول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

يـذكـرنـي طلـوع الشمـس صخـراً وأذكـــره لكـــل غـــروب شمـــس
ولـــولا كثـرة البـاكيـن حـولـي علـى إخـوانهـم لقتلـت نفســي

أمّا جمال الصورة فالأمثلة عليه عديدة، يقول النابغة الذبياني:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإنْ خلت أنّ المنتأى عنك واسع

وقول امرىء القيس يصف سرعة الفرس ويشبهها بسقوط صخرة كبيرة من جبل شاهق حينما يجرفه السيل:

مكــرٍ مفــرٍ مقبــلٍ مــدبــر معــاً كجلمود صخر حطه السيل من علِ

ويمر ابن الرومي على خباز فيصف رغيف الخبز الذي في يده، كأنه الدائرة التي تتكون في الماء حينما يقذف الإنسان حجراً في النهر أو البحر:

ما أنسى لا أنسى خبّازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصرِ
مــا بيــن رؤيتهــا فــي كفّــه كــرة وبيـــن رؤيتهـــا قـــوراء كـــالقمـــرِ
إلاّ بمقـــدار مـــا تنـــداح دائـــرة في صفحة الماء يُرمى فيه بالحجرِ

وفي الشعر الحديث تتكاثر صور الإبهام والحيرة والغموض والحذر والقلق، وإظهار التأوه والحزن والألم، وهذه الصور إفراز طبيعي لما يمرُّ به الإنسان في العصر الحديث من تعقيدات اجتماعية غارقة في بحر (التكنولوجيا)، حيث ابتعد عن الصفاء والفطرة والبساطة، وأصبح

مستودعاً لكثير من الانفعالات، ومجمعاً لكثير من الأسرار، التي جعلت من حياته جحيماً لا يُطاق، فكل هذه الأشياء تداخلت في مكنونات نفسه.

والشعراء أوّل من يتأثر بهذه الحياة ويكتوي بآلامها وأوجاعها، فعبّروا عن ذلك بأبيات شعرية تقطر حزناً وأسًى وحرقة ولوعة ونحيباً، يقول الياس أبو شبكة:

فتلاشت وتمتمت في سكون الليل   الله مـــا الـــذي يشكيـــه
ثـم أخفـت فـي ضفـة العيـن دمعـاً   شـاء سـر الـوقـار أن تخفيـه

هذه اطلالة سريعة على الجمال وعن السرّ المدفون فيه عرضناها على القارىء والكاتب معاً ليكون لديهما حاسة الجمال وملكة تذوقه وصولاً إلى ينابيع الحضارة والتقدم والرقي لأنّ الإطار الحضاري كله يتمثل بذوق الجمال بل إنَّ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا، وأن نتمثل في شوارعنا، وبيوتنا، ومقاهينا، مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي، يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات والروائح والألوان كما يثيرنا منظر مسرحي سيىء الأدوار. حسب قول مالك بن نبي(١).

---

(١) شروط النهضة مالك بن نبي ص٩٤ - دار الفكر - دمشق ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

«الحرية في الإسلام»

قال أحد الشعراء بيتاً يصف فيه حالة الأحرار:

أتمنـــى علـــى الـــزمـــان محـــالاً   أن تـــرى مقلتـــاي طلعـــةَ حُـــرٍّ

يقـول الجنيـد: «لـو صحـت الصـلاة بغيـر القـرآن لصحّـت بقـول الشاعر»[1].

قد يكون رأي الشاعر مبالغاً فيه، وقد يكون قول الجنيد - أحد كبار المتصوفة - بعيداً عن الحقيقة... يعتقد الشاعر أنَّ من المستحيل وجود إنسان في هذا العالم يمتلك كل مقومات الحرية، ويكون في عقله وفكره وسلوكه ومواقفه كلها حراً كامل الحرية، أمّا الجنيد فيسارع - وبلهفة شديدة - لتأييد الشاعر ويرفع منزلة هذا البيت من الشعر إلى درجة تقترب من جواز قراءته في الصلاة كما يقرأ القرآن... يتمنى الجنيد أن يكون هذا البيت جزءاً من تراتيل الصلاة لولا أنَّ ذلك لا يجوز!!... هكذا هو تحرق الشاعر على الحرية، وهكذا هو رأي الجنيد حول الحرية وندبه لها وبكائه عليها.

قد يكون هذان الرأيان غير صحيحين،... ولكننا لو تأملنا طويلاً ودققنا كثيراً في واقع الحرية وفي سجلّها المرير زمانياً ومكانياً وبحثاً في نفوس الناس وفي أفكارهم وأعمالهم، لظهر لنا وبوضوح كامل، أنَّ الحرية مفهومٌ لا يزال يلعق على الألسنة فقط، وشعارٌ يخدّر عواطف

---

(١) الحرية في الإسلام، محمد الخضر بن الحسين ط١، ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م - تونس - المطبعة التونسية.

الناس. . . إلى هذا الحد يجب أن تقف الأمور برأي الذين يمنحون الحرية أو يمنعونها، أمّا إذا تجاوز الأمر ذلك وتحوّل مفهوم الحرية إلى واقع وحقيقة، فإنَّ الحديد والنار ووسائل العذاب كلها تصوّب تجاه كل من يسلك هذا المسلك الخطر، يتجلّى ذلك من إلقاء نظرة سريعة على الخارطة السياسية للعالم. إن الكثير من الحكام يتخوّفون من الحرية ويعتبرونها عدوهم اللدود وهي التي ستقضي عليهم وتهدّم بنيان حكمهم. . . وفي كثير من البلدان لا يستطيع الإنسان أن يعبّر عن رأيه بحرية تامة ولا يستطيع أن يتخذ طريقه في الحياة باستقلالية تامة، وإنَّ الزمان يؤيد ذلك، فمن مراجعة سريعة للحقب التاريخية المتعاقبة على الكرة الأرضية، نشاهد أنَّ الثورات التي قامت لتطالب بالحرية سحقت سحقاً، وبكل شراسة ووقاحة، كم ذرفت الدموع من أجل الحرية. . وكمْ أريقت الدماء في سبيل الحرية. ولكن أين هي الحرية؟! هل يستطيع أحدنا أن يطرح رأيه؟ هل يستطيع أن يتخذ موقفاً فكرياً أو سياسياً أو اجتماعياً دون أن يحسب ألف حساب لألوان من الاضطهاد والمعاناة. . .

هذا من الناحية الزمانية أمّا من الناحية السلوكية والشخصية للإنسان، فمن التدقيق مليّاً في ذهنيات الناس وتصوراتهم ومواقفهم الفكرية والعملية تجاه الآخرين نجد صعوبة كبيرة في العثور على إنسانٍ حرٍّ بالمفهوم الكامل للحرية، إنَّ الأحرار في هذا الزمان قليلون جداً أو نادرون كندرة الكبريت الأحمر. . ولا عجب في ذلك ولا استغراب، لأنَّ الحرية تتطلب من الإنسان أن يتخلص من كل الضغوطات النفسية والسلوكية التي تعيق حركته في الحياة وتحد من توجهه نحو أفق الحرية الواسع، كثير من الأشخاص لا يريد أن يفقد موقعه، لا يريد أن يفقد الأموال الطائلة التي تنهمر عليه، لا يريد أن يأتي شخص ليسلب منه دوره في الحياة حتى لو كان أفضل منه. . . الكثير الكثير من الناس تقعد بهم الضغوطات النفسية أن يكونوا أحراراً في هذا العالم أو يمنحوا الحرية للآخرين. وكما تتطلب الحرية أن

يتخلص الإنسان من كل العوائق الداخلية في نفسه وكيانه، تتطلب منه أن يتجرد من كل الضغوطات الاجتماعية والعادات المنحرفة المتفشية في أوساط المجتمع، والتي تُلقي بظلالها على الناس في أفكارهم وسلوكياتهم فتجعلهم يقاومون كل رأي حر، ويقفون بوجه كل فكر مبدع يحاول النهوض بالمجتمع نحو الحياة الحرة الكريمة الرغيدة، وبسبب هذه الضغوطات الاجتماعية، أصبح كثيرٌ من الناس يفكر بعقلية جمعية تسلب منه كل استقلاليته وشخصيته. إنَّ الإسلام يدعونا إلى أن نفكّر بصورة مستقلة عن تأثيرات الآخرين، ونتخذ موقفاً محدداً دون خوف أو وجل من أية جهة أو قوة سياسية. . . إننا كمسلمين يجب أن لا نجبر الآخرين ولا نقسرهم على تبني أفكارنا والتزام سلوكياتنا، يجب أن يتسع صدرنا للآخرين، وأن نوطن نفوسنا على تقبل واقعهم، واحترام آرائهم، ولكن حينما نريد منهم أن يكونوا مؤمنين بأفكارنا ومبادئنا فالحكمة والموعظة الحسنة هي سبيلنا لإقناعهم ودعوتهم للانخراط في صفوف المؤمنين ضمن المجتمع الإسلامي.

ولا تعني الحرية أبداً، الانفلات من كل شيء، وليست هي الفوضى، وليست هي حالة الرفض لكل شيء عملاً بمقولتهم «خالف تُعرف». وبالمقابل فإنَّ الحرية لا تأتي من سنّ القوانين ووضع القيود والشروط على حركة الإنسان، وتحديد مجال حريته ووضعها ضمن إطارات محددة ومسارات معيّنة، الحرية تنبع من روح الإنسان وذلك من خلال قيم يقتنع بها ويتقبلها ويؤمن بها ثم يسير عليها في منهاج واضح المعالم، واضح الهدف، واضح الاتجاه، إنَّ المسألة المهمة في الموضوع هي: كيف يتغير هذا الإنسان؟ كيف يُصبح حُرّاً؟ كيف ينشر مفهوم الحرية بين الناس؟ هذا هو الأمر الصعب المستصعب.

إنَّ الحرية لا تترسخ في المجتمع إذا كان التغيير من فوق شكليات وأصباغ ومظاهر تتمثل بالقوانين والأوامر والنصائح الميتة، بل يجب أن

يتم التغيير من الداخل. . . من الباطن. . . من تغيير أعماق الإنسان فكرياً وروحياً وتربوياً، يجب أن نصنع الإنسان الحضاري الذي يعرف قدره وحدوده وما يترتب عليه تجاه الآخرين. وحديث الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حول الحرية دليل قوي على أنها طبعٌ وتغيير أكثر ممّا هي قانون وتسيير: «إنَّ الحرَّ حرٌّ في جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أُسر وقُهر واستبدل باليسر عسراً كما كان يوسف الصّديق الأمين لم يضرر حريته أن استعبد وقُهر وأسر»[1].

ليس المقصود بالحرية أن لا يلتزم الإنسان بأيّ شيء أو يرفض كل شيء، هذا مفهوم سيىء للحرية، الحرية تعني حرية اتخاذ القرار من قبل الإنسان نفسه حينما يقتنع بقراره، وينفذه بعيداً عن أية ضغوطات خارجية من أشخاص أو جهات معيَّنة إذا كان لا يخاف من أية جهة في تصميمه وسلوكه فهو حر. الإنسان في الإسلام حرٌّ تمام الحرية، كامل الإرادة، يتصرف بكل وعي وشعور، والأصل في الأشياء الإباحة، يقول تعالى: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]. ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]. يقول الإمام علي عليه السلام: «أيّها الناس إنَّ آدم لم يلد عبداً ولا أمة وإنَّ الناس كلهم أحرار»[2]. فالإنسان يتمتع بكامل الحرية في كل مجالات حياته إلاّ ما حرّم الله عليه «فكل ما ليس محرّماً عليه في كتاب الله وسنة رسوله فهو مباح له يتمتع به بحرية تامة سواء كان ذلك في مأكله أم مشربه أم ملبسه أم زينته أم نفقته أم كسبه أم تصرفه أم حلّه أم ترحاله أم قوله أم كتابته أم خطابته أم اجتماعاته الخ وليس لحريته حدود إلاّ ما حرّمه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من محرمات وأوجباه من واجبات متنوعة والأولى تتناول كل خبيث وفاحش

---

(١) ميزان الحكمة ري شهري م٢ ص٣٥١ - مكتب الإعلام الإسلامي - قم.

(٢) ميزان الحكمة م٢ ص٣٥١.

ورجس وفسق وظلم ومنكر وعدوان وإثم وباطل وإسراف ودس وكيد وتقصير، والثانية تتناول القيام بأركان الإسلام والدعوة إلى سبيل الله والدفاع عنها وعن متبعيها»[1].

مقابل هذه الحرية هناك محدودية وهناك مسؤولية، يجب على الإنسان أن يدرك حدود حريته أمام الآخرين، فليس للإنسان المسلم أن يذلّ نفسه أو يهينها، وليس للإنسان حق في أن يقتل نفسه بما يسمى الانتحار «قطبان للعمل هما الحرية والمحدودية، الذي يجهل محدودياته يكون خياله وهماً عليه وعبئاً عليه وعلى الآخرين، والذي يجهل حريته يكون مسيّراً من قبل الآخرين أو آلة يحركها الآخرون وتحركها الظروف، أمّا الذي يعرف الشرطين معاً، الحرية والمحدودية فيرسم لنفسه صورةً واقعية قابلة للتحقيق ويحاول التغلب على بعض المحدوديات في نفسه وفي العالم المحيط به. هذا يعني أنَّ الصورة عن الذات لكي تكون ناضجة يجب أن تأخذ العالم في الاعتبار، وذلك بأن تكون جزءاً عن صورة كليّة للعالم»[2].

الحرية في المجتمع الإسلامي تقف عند حدود إلحاق الأذى والضرر بالآخرين فإذا تداخلت حرية المسلم مع حريات الآخرين وسببت أذاهم أو هلاكهم فإنَّ على وليّ المسلمين أو المسلمين قاطبة أن يقفوا بوجه هذا الشخص الذي أساء استخدام الحرية والروايات التاريخية والأحاديث الشريفة الواردة عن النبي محمد ﷺ تؤكّد ذلك، يروي لنا التاريخ أن «سمرة بن جندب كان له عذق في حائط لرجلٍ من الأنصار وكان منزل الأنصاريّ بباب البستان وكان يمرُّ به إلى نخلته ولا يستأذن. فكلمّه الانصاري أن يستأذن إذا جاء فأبى سمرة فلمّا تأبى جاء الأنصاريّ إلى

(١) الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة محمد عزة دروزة ص٦١ الجزء الثاني ١٩٧٠م - مصر/عيسى البابي الحلبي.
(٢) الدين والمجتمع رؤية مستقبلية ص٣٧ دار النهار للنشر ١٩٨٣م.

رسول الله ﷺ فشكا إليه وخبّره الخبر، فأرسل إليه رسول الله ﷺ فخبّره بقول الأنصاريّ وما شكا وقال: إن أردت الدخول فاستأذن فأبى فلما أبى ساومه حتّى بلغ به من الثمن ما شاء الله فأبى أن يبيع. فقال: لك بها عذق يمدّ لك في الجنة فأبى أن يقبل. فقال رسول الله ﷺ للأنصاريّ: اذّهب فاقلعها وارم بها إليه فإنه لا ضرر ولا ضرار»[1]. . وأصبح قول النبي محمد ﷺ هذا قاعدة فقهية إسلامية يسير عليها المسلمون حتى يومنا هذا «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» في كل من يسيء استخدام حريته ويجلب الأذى ويلحق الضرر بالمسلمين بحجة أنّه حرٌّ في أن يتصرف بالأشياء التي هي تحت تصرفه.

ويصوّر لنا رسول الله ﷺ في الحديث التالي حدود حرية الفرد حينما تصطدم بحرية الناس وحينما تؤدي إلى إهلاكهم حينذاك يجب أن يأخذوا على يده ويوقفوه عند حدّه، لأنّ تركه يعمل ما يشاء ووفق ما يشتهي ويريد دون أن يأخذ بالاعتبار أرواح الناس وحرماتهم - إنَّ تركه كذلك فيه الهلاك والدمار له وللمسلمين، وإنَّ منعه فيه النجاة له وللمسلمين يقول ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا، وإن أخذوا على يدهم نجوا ونجوا جميعاً». وعن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المعصية إذا عمل بها العبد سرّاً لم تضرَّ إلاّ عاملها، وإذا عمل بها علانية ولم يغيّر عليه أضرّت العامة. قال جعفر بن محمد عليه السلام: وذلك أنّه يذلّ بعمله دين الله ويقتدي به أهل عداوة الله»[2].

---

(١) ميزان الحكمة ري شهري م٥ ص٤٩٣ - قم ١٤٠٤ هجرية.

(٢) ميزان الحكمة م٦ ص٢٦٨.

إنَّ الإسلام منح الحرية للإنسان وفي مقابل ذلك وضع عليه مسؤولية تجاه نفسه وتجاه الآخرين وفوق ذلك حساب الله. إنَّ الكثير من أعمال الإنسان لا يطاولها القانون الوضعي إمّا لأنها تُعمل في السر، أو أنها لا تقع تحت طائلة تشريعاته، وميزة الإسلام أنه يحاسب الإنسان على باطنه كما يحاسبه على ظاهره فهناك حساب وعقاب في الدنيا وهناك حساب وعقاب في الآخرة: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. والمسؤولية الشرعية في الإسلام مفصلة ومبوبة ومحددة لكل فرد مسلم بالغ عاقل يكون أهلاً لتحمّل المسؤولية وقد عبّر عنها الفقهاء بمصطلحات الذمّة والأهلية، كما حددّ أهل القانون تعريفات خاصة للمسؤولية. إنَّ تعميق هذا المفهوم في نفوس المسلمين وفي مداركهم العقلية عبر تربية الناس تربية قانونية يجنب المجتمع الإسلامي الكثير من المصائب والويلات والمشاكل، فيعرف كل شخص قدره وحدوده ومسؤولياته تجاه الآخرين وكيفية التعامل معهم تعاملاً إسلامياً فذّاً.

هذا عن المفهوم الفكري والنظري للحرية في الإسلام، أما الجانب العملي والتطبيقي للحرية في الإسلام، فقد جاء مصداقاً واقعياً وحقيقياً للمبادىء الإسلامية، والتطبيقات الإسلامية لمفهوم الحرية كثيرة جدّاً، وأوّل من وضع أسس وركائز الحرية في الإسلام الرسول محمد ﷺ فكانت أقواله وأفعاله تجاه أصحاب الديانات والمبادىء الأخرى مثلاً يُحتذى للمسلمين وللبشرية جمعاء فقد «جاء في كتابه ﷺ إلى أهل اليمن: وأنّه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته، فإنه لا يُرَدُّ

عنها»[1]. وامتزجت وصاياه ﷺ مع مواقفه وتعاملاته امتزاجاً كاملاً، وبذلك أعطى ﷺ صورة حقيقية وصادقة لمفهوم الحرية في الإسلام يظهر لنا ذلك من خلال الرواية التالية: «قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد العصر فحانت صلاتهم، فقاموا يصلّون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم»[2]. إنَّ الإسلام يدعو المسلمين إلى التمسك بالعقل والبرهان والحوار في مناقشاتهم الفكرية مع الآخرين، وأكّد الإسلام على حرية الإنسان في الاعتقاد والتزام أيّ مبدأ، والإنسان مسؤول أمام الله سبحانه من جرّاء اختياره وتصميمه واتخاذه سلوكاً معيناً في الحياة، لقد هيأ الإسلام كل مستلزمات الحرية وأجوائها الملائمة... ومن خلال هذه الحرية تفتحت أذهان المسلمين واتسعت آفاقهم، ورحبت صدورهم لكل أصحاب العقائد والأفكار والمبادىء الأخرى، فأقبلوا يدرسونها بموضوعية تامة، ويتحاورون مع أصحاب هذه المبادىء بروحية حضارية وذهنية علمية، تُحيط بذلك كله أخلاق غاية في اللطف والروعة «يقول هاملتون: العرب [يقصد المسلمين] هم أوّل من ألفوا في الملل والنحل، لأنّهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام عن ديانات توحيدية ويحظى ابن حزم بالنصيب الأوفر، وقد كتب أبو الريحان البيروني في أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة، فلم يمس عاطفة أحد من أهلها، وكان إذا كتب عن نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطفه في وصف شعائرها، وكان كتّاب العرب يذكرون جميع المخالفين بكل حرمة، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وطبقات الحكماء لابن القفطي، وطبقات الأدباء لياقوت، والوافي

---

(١) دراسة في منهاج الإسلام السياسي سعدي أبو حبيب ص٧٠٢.

(٢) المصدر السابق ص٧٠٤.

بالوفيات للصفدي، وفي تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي أمثلة لهذا التسامح، فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنّهم أبناء ملة واحدة»[1].

إنَّ من أهداف الإسلام الكبرى هو منح الحرية الكاملة للبشرية وإزالة كل القيود والاغلال التي كان الناس يرزحون تحت عذابها، وتحجر على عقولهم وتضع الخط الأحمر على أفكارهم وتعيق حركتهم في الحياة، وهذه مهمة عظيمة من مهمات النبي محمد ﷺ، يقول تعالى في وصف الرسول محمد ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. هذه الاغلال المتعددة والمتنوعة من مادية وعقلية ونفسية واجتماعية، أغلال الحكام والأنظمة، أغلال العقائد والأفكار المنحرفة أغلال العادات والتقاليد المنحرفة وغيرها، هذه الأغلال التي كانت تكبّل أعناق البشرية وتُثقلُ كاهلها وتُرهقها ليلَ نهارَ وصباحَ مساءَ، جاء الإسلام ليزيلها ويحطمها ويحرر الناس من ربقة العبودية لغير الله الواحد القهار. إنَّ أهداف الإمام الحسين عليه السلام في ثورته هي نفس أهداف النبي محمد ﷺ في بعثته. لقد قالها الحسين عليه السلام يوم أصبح وحيداً أمام الجيوش المتكاثرة التي تجمعت وتكالبت لقتاله، أطلقها عليه السلام صرخة مدوية: «كونوا أحراراً في دنياكم» لقد رفض الإمام الحسين - أبو الأحرار - الذلة والهوان، ودفع ثمن إبائه وحريته باهظاً حيث قُتلِ تلك المقتلة الفجيعة هو وذريته وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

ظهر الإسلام وانتشر وكانت العبودية بنوعيها المادي والفكري منتشرة في كل أنحاء الدنيا، فظل يركّز على اتجاهين أو جانبين: اتجاه

---

(١) قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام أنور الجندي ص١٧٨ مؤسسة الرسالة - بيروت ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

المادة وحلقات القيود التي كانت تكبّل ملايين الناس الذين قُهروا على أن يكونوا عبيداً لغيرهم فمنع الإسلام الرق وفتح باب العتق في كل مجالاته الممكنة، والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وأبواب الفقه الإسلامي زاخرة وطافحة بمعالجة هذا الموضوع. . أمّا الاتجاه الثاني وهو الجانب العقلي والنفسي والاجتماعي، فقد ركّز الإسلام على تحويل اتجاه البشرية من عبادة الأوثان وعبادة الأشخاص والتعصب للأفكار والعقائد الباطلة، إلى عبادة الله الواحد القهار، وإلى سماع الوحي القرآني وتدبره والتفكر في تشريعات الإسلام الجديدة التي تزخر بالسمو والعظمة والمحبة والعطاء والتي تهدف إلى إسعاد البشرية وتحقيق الاطمئنان الروحي والنفسي لها ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، «إنَّ العبودية لله هي قمة التحرر الإنساني، لأن هذه العبودية لله - لو كانت صادقة - لا بدَّ أن تحرر الإنسان من كل حاجة من حاجات الدنيا حتى ما يُعتبر أساسياً من هذه الحاجات كلقمة العيش»[١]. حينما يذوب الإنسان في الله، ويعبده حق عبادته، فإنه في الوقت نفسه يكون حرّاً بكل معنى الحرية لأنه يتخلص بعبوديته لله من كل ألوان الرق والحاجة إلى الناس. . . حينما يكون عقله وروحه وسلوكه مع الله، فإن كل أنواع العبودية تزول فيتحرر الإنسان ويشعر بهواء الحرية الطلق، ويحس بأنَّ عقله تفتح وأن روحه أينعت وأنَّ سلوكه وأخلاقه كأخلاق الأولياء والمقربين والصديقين، يقول الإمام علي عليه السلام: «فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله بالحق ليخرِجَ عبادَه من عبادةِ الأوثانِ إلى عبادته، ومن طاعةِ الشيطان إلى طاعته»[٢].

هذا عرض فكري للحرية بواقعها المأساوي سابقاً وحاضراً، وهذهِ هي نظرة الإسلام للحرية ودعوته للناس للأخذ والتمسك بها، وبهذه

(١) الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر عبد الغني عبود ص١٥١ دار الفكر العربي ١٩٧٨م.

(٢) نهج البلاغة ج١٤٧.

الحرية يمكننا أن نتقدم ونرتقي ونحقق الازدهار في مجتمعاتنا لأنه بالحرية تتفتح الأذهان، وبالحرية تنمو القابليات، وفي أجواء الحرية الرحبة يتحقق الإبداع الفكري والمادي، وتصل البشرية إلى غاية الحياة الحقيقية ألا وهي السعادة في الدنيا والآخرة ورضوان من الله.

«قيمة العمل في الإسلام»

قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

أعطت الآية القرآنية الكريمة اهتماماً كبيراً للعمل وجعلت الأشخاص الذين يبتغون فضل الله بالعمل كالمجاهدين في سبيله، وتقدّم العمل في الآية القرآنية على القتال مبنيٌّ على أساس أنَّ العمل والسلام والعمران هو الأساس في الإسلام، فالدعوة إلى الله إن كان يمكن إجراؤها في أجواء العلم بالحكمة والموعظة الحسنة هي الأفضل إذا كان الطريق إلى هداية الناس سالكاً لا عقبات فيه، وقد شُرِّعَ القتال وأذِنَ اللهُ بالجهاد لتعذر الدعوة إليه سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة. والملاحظ أنَّ القرآن الكريم حينما يتعرض للعمل يذكره بعبارات قوية وجادة وحازمة تمتلىء بالحث والتحضيض فالضرب في الأرض والسعي فيها والسيح عبارات تدعو إلى الجدّ والسعي والمواظبة. وتذم الآيات القرآنية الكسل والتراخي والاستسلام للراحة والركود والخلود إلى الأرض.

إنَّ التجارة هي نتيجة طبيعية للزراعة والصناعة وهي ثمرة من ثمرات العمل في كلا المضمارين، وإنَّ تغيير الحياة المادية وتحقيق التقدم والازدهار الحضاري مرتبط بالعمل الجاد والمثمر، فبالعمل يتحول المجتمع من الحياة البسيطة ومن الوسائل البدائية إلى الحياة المتقدمة والمتطورة، وبذلك تتوفر كل مظاهر الراحة والرفاه والسعادة للإنسان، ويؤدي ذلك إلى معيشته وضمان مستقبله بشكل أفضل، وبغير العمل وبذل

الجهد تصبح حياة الإنسان والمجتمع مجهوداً شاقاً وعسيراً بحيث لا تتوفر الحاجات الأساسية والأمور الضرورية إلاّ بالكدّ والتعب والعناء. وقد لا يحصل عليها الإنسان بصورة كاملة أو لا يحصل عليها أصلاً، فيحدث الشقاء والألم والمرض وتنتشر المجاعة، ممّا يؤدي إلى قصور في أداء الإنسان لدوره في الحياة، أو يُقضى عليه فيموت بالفقر والفاقة وبكل ما يرافقهما من عدم توفر الدواء والكساء والسكن والنقل والانتقال، وعلى العكس من ذلك كلّه فإنّه بالعمل تتغيّر كل مظاهر الحياة المادية، الشوارع المرصوفة والبنايات الشاهقة، وسائل النقل المتطورة، الأراضي الخضراء الواسعة، توفر كل وسائل الراحة والرفاه، وما ينتج عن ذلك كله من تبادل تجاري يوفّر كل الآلات والأجهزة والمعدّات، والأطعمة والألبسة، فيحصل الإنسان على حاجاته بيسرٍ وسهولة، ويصل المجتمع إلى حالة من الرقي والرفاه والاكتفاء الذاتي، هكذا إذن يحوّل العمل الحياة من شيء إلى شيء آخر ومن حالة بدائية يسودها العوز وما يرافقه من آلام نفسية وجسمية إلى حالة متقدمة ومتطورة يسودها الرخاء والسعادة الجسمية والنفسية بحيث يزول القلق النفسي من فكر الإنسان حول أمور معيشته وحول مستقبله ومستقبل أطفاله ومستقبل مجتمعه كله. كيف نعمل؟ كيف ننمي روح العمل لدى الإنسان؟ كيف نجعل منه إنساناً عاملاً فاعلاً مكدّاً دؤوباً؟ كيف يكون جادّاً في عمله متقناً له؟ كيف نوضح له أهداف وأبعاد عمله؟ هذا ما يحاول المقال التالي أن يوضحه ويبيّنه..

حينما نبدأ بقراءة الآيات القرآنية الكريمة ونستقرىء الأحاديث الشريفة حول العمل، وحينما نتصفح سيرة الأنبياء والأولياء وكيف كان حبهم للعمل تظهر أمامنا الحقيقة الناصعة الساطعة التي تؤكّد على أنَّ الإسلام هو دين العمل وليس دين الجدل، الدين الذي يطالب أتباعه بأن يفعلوا ما يقولون وينهاهم أن يقولوا ما لا يفعلون، ولو أحصينا الآيات التي تتحدث عن الفعل والعمل لوجدناها كثيرة جداً «فقد وردت في القرآن

(٣٦٠) آية تحدثت عن العمل ووردت (١٩٠) آية عن (الفعل) وهي تتضمن أحكاماً شاملة للعمل وتقديره ومسؤولية العامل وعقوبته ومثوبته»[1]. ومصداق هذين الرقمين آيات وأحاديث كثيرة تدعو إلى العمل وتؤكّد عليه منها قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٥، ٩٦]. و«كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى الرجل فأعجبه فقال: هل له حِرفةُ؟ فإن قالوا: لا، قال: سقط من عيني»[2].. «وفي رواية عن أبي عمرو الشيباني قال: رأيتُ أبا عبد الله عليه السلام وبيده مسحاة وعليه إزارٌ غليظ يعمل في حائطٍ له والعَرَقُ يتصابُّ عن ظهره، فقلتُ: جُعلت فداك أعطني أكفك، فقال لي: إني أُحبُّ أن يتأذى الرجلُ بحرِّ الشمسِ في طلب المعيشة»[3]. و«عن علي بن أبي حمزة قال رأيتُ أبا الحسن عليه السلام [الكاظم] يعمل في أرضٍ له قد استنقعت قدماهُ في العَرَق، قلت: جعلتُ فداكَ أين الرجالُ؟ فقال: يا عليُّ عَمِلَ باليد مَنْ هُو خيرٌ مني ومن أبي في أرضه، فقلتُ له: ومن هو فقال: رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وآبائي كلُّهم قد عملوا بأيديهم وهو من عَمل النبيين والمرسلين والصالحين عليهم السلام»[4]. وفعلاً كانوا عليهم السلام كذلك فإنّ «الأنبياء، وهم أفضل خلق الله، قد مارسوا العمل

(١) العمل وحقوق العامل في الإسلام باقر شريف القرشي ص١٢١ دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام طهران إيران ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢) الشاب بين العقل والعاطفة تأليف الشيخ محمد تقي فلسفي تعريب السيد نور الدين مير زادة ج٢ ص١٤٧ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان ط١، ٤/١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٣) المصدر السابق ص٧٦.

(٤) المصدر السابق ص١٤٧.

في حياتهم، فقد احترف آدم الزراعة، ونوح التجارة وداود الحدادة وإدريس الحياكة، وسليمان عمل الخوص، وزكريا النجارة وعيسى الصباغة، ومحمد رعي الغنم والتجارة... وكان في ذلك أكبر إدانة للفكر اليوناني القديم وغيره من الأفكار التي تحتقر العمل اليدوي وتتفرغ للتأملات الفلسفية وغيرها من الأعمال غير المنتجة»[١]... «فقد كانت المجتمعات قبل الإسلام تعتبر العمل وظيفة العبيد ومهنة الطبقات السفلى في المجتمع... ورأي أفلاطون المفكر اليوناني المشهور في قيمة العمل وأنّه من خصائص طبقة العبيد»[٢]. إنَّ الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ يحب يد العامل التي تكّد وتكدح في طلب الحلال، وورد الذم عن الرسول ﷺ للشخص الذي يكون عالة على غيره يعيش على سؤال الناس وعطاياهم قال ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[٣]. وكما أن الإسلام يدعو إلى طلب العلم من المهد إلى اللحد فإنه يدعو الناس إلى الاستمرار في العمل حتى يوم القيامة: «قال ﷺ: إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[٤]، وقال ﷺ: «من بات كالاً من طلب الحلالِ بات مغفوراً له»[٥]. وفي الوقت نفسه ذم الإسلام المتكاسلين

---

(١) الإسلام والاقتصاد د. عبد الهادي علي النجار ص٢٨ عالم المعرفة الكويت رقم ٦٣ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) مشكلة الفقر د. عبد الهادي الفضلي ص٣٦.

(٣) من سيرة الرسول ﷺ عبد اللطيف عاشور ص٣٩ دار بور سلامة للطباعة والنشر والتوزيع تونس.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة محمد ناصر الدين الألباني م١ ص١١ منشورات المكتب الإسلامي بيروت. تاريخ الطبع لا يوجد، مقدمة المؤلف ١٤/ ٢/ ١٣٧٨هـ.

(٥) من أخلاقيات الإسلام، الداعية الإسلامي ياسين رشدي نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٢هـ.

المتقاعدين النوامين الفارغين البطّالين الذين يحبون حياة الراحة والدعة والركود يقول تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨٣]، أمّا الأحاديث الشريفة التي تنهى عن الكسل وتذم الضجر فهي كثيرة وعديدة منها: «إياكم والكسل فإنه من كسل لم يؤدّ حق الله» «إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تعمل وإن ضجرت لم تعط الحق» «إياك والكسل والضجر فإنهما يمنعانك من حظك من الدنيا والآخرة» «ولا تكسل عن معيشتك فتكون كلاًّ على غيرك» «إني لأبغض الرجل أن يكون كسلاناً في أمر دنياه» «إنَّ الأمور لمّا ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتجا بينهما الفقر» «إنَّ الله عز وجل يبغض العبد النوام الفارغ»[1].

من كل ما سبق نستنتج أن الكسل وحب الراحة والترف من العوامل المهمة في جلب الفقر وزوال النعم، ولو بحثنا عن أسباب تراكم الديون وارتفاع الأسعار واختفاء الخيرات وانتشار الفقر في أيّ بلدٍ من بلاد العالم لوجدناه في الضجر والكسل والإعراض عن العمل الجاد والمتواصل والمثمر الذي يحيل الأرض القاحلة إلى خضراء مثمرة. أمامنا أمثلة شاخصة لدول متقدمة متطورة يعيش أهلها سعداء بسبب انكبابهم على العمل وجهدهم ومثابرتهم عليه، ودول فقيرة غارقة في الديون، يعمُّ أهلها الفقر والفاقة، ويطغى على ديارها الخراب بسبب ضجر وتكاسل أبنائها وكرههم للعمل الجاد والمتواصل، ولو أننا أمعنا النظر في الأحاديث التي تدور حول العمل، لنجد أن أكثرها يدعو إلى العمل وينهى عن الكسل، والقليل القليل من هذه الأحاديث يدعو إلى الأخذ بأسباب الراحة والاستراحة، ممّا يؤكّد التوجه الإسلامي العام نحو العمل ثم الاستفادة من الفراغ وأخذ أسباب الراحة. إنَّ هذا التوجه يذكّرنا بالأساس الأوّل من

(١) مشكلة الفقر د. عبد الهادي الفضلي ص٣٤.

أسس الإسلام وهو التوجه نحو الآخرة مع عدم نسيان الدنيا ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

إننا في هذه الحالة أمام ظاهرتين خاطئتين في المجتمع: ظاهرة التكاسل وحب الراحة والدعة وكره العمل والتعاجز عن القيام به على أفضل وجه وأكمل صورة، وظاهرة الإدمان على العمل بحيث يصبح الإنسان كالآلة الميكانيكية، وهي ظاهرة منتشرة في المجتمعات الغربية وفي اليابان على وجه الخصوص، بحيث تضطر الحكومة اليابانية إلى إصدار بيانات ترجو فيها من الناس وتطلب منهم بإلحاح أن يخففوا من تكالبهم وإدمانهم على العمل وتفرض عليهم يوم عطلة إلى جانب عطلتهم الاسبوعية، يقول رادوفان ريشته: «فبدأنا نشهد داخل العمل المصنعي وفي الحياة المرتكزة على إعادة الإنتاج الاجتماعي لقوّة العمل نشوءاً تدريجياً لبيئة مصطنعة ليست على انسجام تام مع الخواص البيولوجية والنفسية التي ميّزت حياة الإنسان على مرّ القرون، ولم تعد تتفق بعد الآن مع ميول الإنسان واستعداداته الطبيعية ولم تكن شروط الحياة المذكورة بالتأكيد من تصوره وتصميمه وإنما هي بالأصح حصيلة الاستخدام الصناعي للإنسان والوسائل التي تسهّل مهامه المتعلقة بهذا الاستخدام، وقد اكتسبت هذه الشروط منعطفاً كيفياً فاتراً. إذ تجرف قوة الحضارة الصناعية الدافعة جماهير الناس صبحاً ومساءً، وتحصر نشاطهم في حدود عيّنت بإحكام، وتضعهم وجهاً لوجه في حالات جاهزة سبق إقرارها، كما ترسم لحياتهم حدوداً ثابتة راسخة الأركان»[1]. إنَّ الفرد الأوروبي يعتبر ساعات الابتعاد عن العمل وانتهاء الدوام حتى بداية العمل في اليوم التالي ساعات بطالة لا جدوى منها ولا فائدة بينما الإسلام يقول: «روحوا القلوب ساعة فساعة» «إنَّ لنفسك عليك حقّاً، وإنَّ لجسدك عليك حقاً، وإنَّ لزوجك عليك حقاً، وإنَّ لعينك عليك حقّاً».

---

(١) الحضارة على مفترق الطرق رادوفان ريشته ص٣٠٥.

هذا عن أهمية العمل ودوره في الحياة وأثره في المجتمع ولندخل الآن في صلب الموضوع، ونعرّف العمل تعريفاً علمياً وإسلامياً، العمل في اللغة: - بالتحريك - «المهنة». أمّا اصطلاحاً فقد وردت تعريفات متعددة للعمل منها: هو «كل نشاط يبذله الإنسان عن وعي وقصد ويحس بالألم حين يبذله، وهدفه من بذله هو خلق الأموال، أي الأشياء التي تشبع الحاجات مباشرة أو بطريق غير مباشر»(١) وعرّفه آخرون بأنه «المجهود الإرادي الواعي الذي يستهدف منه الإنسان انتاج السلع والخدمات لإشباع حاجاته، ومن ثم فإنّ مجهود الحيوانات أو مجهود الإنسان لغير هذا الهدف لا يُعتبر عملاً»(٢). وفي تعريف آخر «بأنه العنصر الثاني للإنتاج وهو أثر من آثار الحياة البشرية ومظهر من مظاهر قوتها ومضائها»(٣)... «العمل في العرف الإسلامي يُطلق تارة، ويُراد به الجهد والمشقة التي تقابل بالمال، وعلى ذلك بنى الفقهاء قاعدتهم المشهورة (عمل المسلم محترم) والمراد ضمان عمله، وعدم ذهابه مجاناً، وقد استدلوا بها في كثير من أبواب الفقه على ضمان العمل وعدم ضياع جهد العامل... ويُطلق تارة ويُراد به مطلق الفعل، وتترتب على بعضه المسؤولية والضمان والمؤاخذة»(٤).

إننا نقصد بالعمل في موضوعنا هذا هو العمل بمفهومه الخاص اليدوي أو الإداري أو الكتابي الذي يستلزم من الإنسان مجهوداً معيناً وفي وقت محدّد ولا نقصد منه المفهوم العام للعمل الصالح في كل زمان ومكان حسب قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) العمل وحقوق العامل في الإسلام باقر شريف القرشي ص٤٨.
(٢) الإنسان أساس التنمية وهدفها عبد الله محمد السنباني ص٢٦ دار العودة بيروت ط١ ١٩٩٠م.
(٣) الإسلام والاقتصاد د. عبد الهادي علي النجار ص٢٦.
(٤) العمل وحقوق العامل في الإسلام، باقر شريف القرشي ص٥٠.

﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: 97].

إنَّ هناك الكثير من الأمور والتعليمات والمستلزمات التي لو توافرت في عملٍ من الأعمال لأثمرت وأنتجت تقدماً وازدهاراً واضحاً، وهذه الأمور يمكننا الحصول عليها من التوجيهات الإسلامية التي يمكننا استنباطها من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ونرى بوضوح مداليلها ومصاديقها في واقع العمل الإسلامي، ويمكننا العثور عليها في تجارب الأمم الأخرى، ولا يستنكف الإسلام من ذلك بل يحثّ عليه ويدعو إليه «خذ الحكمة ولو من أهل النفاق» «اطلب العلم ولو كان في الصين» من هذه الأساليب التي يؤكّد عليها الإسلام والنظم الاقتصادية الحديثة هي:

١ - زيادة الكفاءة والخبرة الفنية لدى العامل.

٢ - تعويده وتدريبه على اتقان عمله وإكماله على أفضل صورة.

٣ - محاولة إفهامه أنّ عمله الخاص جزء من عمل عام في بناء المجتمع الإسلامي المزدهر.

٤ - احترام العامل وتقديره ورفع مكانته الاجتماعية.

٥ - توفير كل مستلزمات الخدمة الاجتماعية له، من صحية وسكنية ومعيشية وترفيهية وفوق ذلك كله توجيهه توجيهاً دينياً وبناءه بناءً عقائدياً صلباً حتى يؤدي دوره الحضاري بصبرٍ وعزمٍ وقوة واتقان مبتغياً وجه الله وطالباً فضل الله سبحانه وتعالى. يؤيد ما قلناه سابقاً الفكر الإسلامي والفكر الاقتصادي المعاصر «تعتمد التنمية الاقتصادية للدولة على المعرفة الفعّالة والمهارات والكفاءات الفنية وطاقة واجتهاد واتقان قوة العمل أكثر من اعتمادها على حجم ونوع رأس المال والموارد الطبيعية، لذا فإن في زيادة التشغيل وكفاءة العمل بما فيها عمل الإدارة والإشراف زيادة لمعدلات التنمية الاقتصادية. . . هذا وتهدف السياسة الاقتصادية إلى تنمية

هذه الكفاءة والتغلب على معوقاتها والعقبات التي تقف في سبيلها، ومن المعلوم أنَّ للعوامل الاجتماعية والثقافية والغذائية والصحية دورها الهام في ذلك»[1].

«كذلك فإنَّ هذه الكفاءات لا بدَّ لها وأن تنمي مهاراتها بصفة مستمرة، وأن تؤدي عملها وفقاً لأحدث الأساليب العملية في مجالات العمل المختلفة، إذ يقول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» ويقول الله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2] [سبأ: ١١].

إنَّ التعلم والتعليم والتدريب واستخدام التجربة أمورٌ دعا إليها الإسلام في كثير من الآيات والأحاديث، نستشف ذلك كله من تعاليم الرسول ﷺ ومواقفه مع المسلمين وأبنائهم، وإن كانت الحياة في ذلك الوقت بدائية بسيطة لا تعقيد فيها. إنَّ الإسلام يحث على التفقه في الدين وعلى تعلّم القرآن الكريم وعلى تعلم السباحة والرماية والفروسية، ويوفر مستلزمات العمل للأشخاص الذين يملكون استعدادات وقوى جسدية وعضلية للعمل، ولذلك تخصص الدول في الوقت الحاضر أموالاً طائلة لتدريب العاملين لديها في مختلف القطاعات وإدخالهم في دورات تدريبية مكثفة لزيادة مهاراتهم ورفع قدراتهم وزيادة كفاءاتهم ممّا يؤدي إلى زيادة في نوعية وكمية إنتاجهم المعملي «لا ينبغي أبداً للدولة أو المؤسسات الخاصة والشركات أن تتساءل: لماذا نهدر المبلغ الفلاني من أجل عمل لا نعرف نتيجته وحصيلته؟ وهل سينتج منه شيء ينفع أم لا؟ ما دام هذا التفكير يسيطر على اقتصادنا فلن يجد المبتكرون والمخترعون وأصحاب الأدمغة والأفكار ميداناً ومجالاً مناسبين للنمو في هذا البلد وهذا

---

(١) التنمية والتخطيط وتقويم المشروعات في الاقتصاد الإسلامي د. محمد عبد المنعم ص١٢٩. دار الوفاء مصر الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق ص١٥١.

المجتمع»(١) يقول الله سبحانه وتعالى على لسان ابنتي شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وورد في الحديث الشريف: «إنَّ الله يحبُّ المحترف الأمين»(٢). وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اعطوا الأجير حقّه قبل أن يجف عرقه»(٣). إنّ الإسلام يدعو إلى الاستمرار في العمل ومواصلة الجهد وإتمامه بأكمله حتى نهايته «كان صلى الله عليه وآله وسلم أحب العمل إليه ما دووم عليه وإن قل»(٤). ويقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «الأمور بتمامها، والأعمال بخواتيمها»(٥). ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «الإبقاء على العمل حتى يخلص، أشدّ من العمل»(٦).

ويلخص لنا الإمام الصادق عليه السلام مستلزمات النجاح في العمل وهي:

١ - الكفاءة والعلم والخبرة.

٢ - الأمانة والاتقان في مزاولة العمل.

٣ - تكريم وتوفير الحاجات الضرورية للعامل - وذلك في قوله عليه السلام: «كلُّ ذي صناعة مضطرٌ إلى ثلاث خِلالٍ يجتلبُ بها الكَسْبَ وهوَ أن يكون حاذقاً بِعِلْمِ مؤدياً لأمانةٍ فيه مستميلاً لمن استعمله»(٧).

---

(١) بحث في أبعاد النظرية الاقتصادية الإسلامية محمد حسين بهشتي ص١١٣. دار الحق للطباعة والنشر بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) مشكلة الفقر د.عبد الهادي الفضلي ص٣٥.

(٣) التنمية والتخطيط وتقويم المشروعات في الاقتصاد الإسلامي محمد عبد المنعم ص١٥٣.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٧/ ١٧٩٨٣.

(٥) الحياة مرتضى الحكيمي ص٢٨٠.

(٦) المصدر السابق ص٢٧٨.

(٧) الشاب بين العقل والعاطفة، تأليف الشيخ محمد تقي فلسفي ص٣٢٩.

الطريق إلى المعرفة الإسلامية[1]

تتركز بحوث نظرية المعرفة حول الأسئلة التالية: ماذا نعرف؟ وكيف نعرف؟ وما فائدة هذه المعرفة للإنسان؟

إن أهمية المعرفة تتوضح في أنها تجعل الطريق أمام السائرين مستقيماً وقصيراً ومعبّداً للوصول إلى أهدافهم المرسومة، يرون مواضع أقدامهم بوضوح كامل، ويعرفون ما الذي يفعلونه معرفة جيدة، إن المعرفة الصحيحة تجنب البشرية الكثير من المزالق والأخطاء والانحراف، وتجعل هدفهم واضحاً وخطواتهم أكثر وضوحاً.

نستطيع أن نشبه الأشخاص الذين يتصرفون بدون معرفة بالمثلين العربيين «عند الصباح يحمد القوم السرى» و«كحاطب ليل». إن السائرين في الظلماء لا يعرفون كم قطعوا من المسافات في سيرهم ليلاً، وفي الصباح تظهر نتائج سيرهم، والمثل الآخر الذي يشبّه العامل الذي لا يعرف ماذا يعمل ولا يستطيع رؤية ثمار عمله، وذلك حينما يجمع الحطب في الليل فيخلط في احتطابه بين الحطب الحقيقي والأشواك والأشياء التي لا فائدة منها. إن المعرفة الصحيحة تجنبنا ذلك كله، تجنبنا السير في الطريق المظلم الذي قد نتيه فيه، وتجنبنا الأعمال التي لا فائدة منها.

التشخيص

إن وضوح الهدف ووضوح الوسيلة يكفلان لنا النجاح في كل أمور حياتنا، كما أن معرفة الأشياء على حقيقتها يسهل علينا التعامل الصحيح

(١) نشر في مجلة البلاد، العدد ٤٤.

معها وبالتالي الاستفادة منها على الوجه الصحيح، يقول الإمام علي عليه السلام: «أول الإيمان معرفته»، وهناك مقولة بين الأطباء إنَّ «التشخيص نصف العلاج» و«قديماً كان سقراط يلحُ على أن الإنسان السوي هو الإنسان الذي يتوفر له القدر الكافي من المعرفة ذلك لتأكيده على أن الإنسان لا يمكن أن يعمل بالخير إلا إذا عرف ماهية الخير»[1].

والمعرفة شغلت الإنسانية منذ القديم وحتى تاريخنا المعاصر و«يعتبر السفسطائيون وأفلاطون روّاد البحث في نظرية المعرفة، كما يمكن القول إنَّ الفلاسفة المحدثين اهتموا اهتماماً أساسياً بنظرية المعرفة، يتضح ذلك في فلسفات ديكارت ولوك وهيوم وكانت، نلاحظ أيضاً أن الفلسفة الانجليزية المعاصرة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اليوم ازداد اهتمامها بنظرية المعرفة، ويتمثل ذلك في فلسفات الهيجليين الجدد مثل توماس هل جرين وبرادلي وبون الكيت، وفلسفات التجريبيين مثل جون ستوارت مل وجورج مور وبرتراند رسل ومدرسة فنجشتين وألفرد إير وغيرهم. وقد اهتمت الفلسفة الفرنسية المعاصرة بنظرية المعرفة، وزاد اهتمامها في مجال المعرفة بوجه خاص بنظرية نقدية إلى مناهج العلوم المختلفة وتطورها، ومعها نظرة فلسفية إلى النظريات العلمية المعاصرة مثل الكوانتم والنسبية، مثلما نجد عندما مايرسون وبرنشفيك وباشلار وبلانشيه وغيرهم»[2]. وتعمق العلماء والفلاسفة كثيراً في نظرية المعرفة وظهرت لهم آراء ونظريات متعددة واختلفوا في مصداقية العقل والتجربة، واختلفوا أيضاً في المعرفة نفسها، أهي قطعية موضوعية أم ظنية احتمالية وقد «اصطلح على تسمية البحث الذي يجعل من المعرفة موضوعاً للدراسة بنظرية المعرفة Epistemology - الابستمولوجيا» وعندئذٍ يكون المراد به

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي ص ٢٠٥، د. سعيد إسماعيل علي.

(٢) نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين دكتور محمود زيدان ص٨ دار النهضة العربية - بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

البحث في إمكان العلم بالوجود أو العجز عن معرفته، هل في وسع الإنسان أن يدرك الحقائق ويطمئن إلى صدق إدراكه وصحة معلوماته، أم أن قدرته على معرفة الأشياء مثار للشك، وإذا كانت المعرفة البشرية ممكنة، وليست موضعاً للشك، فما حدود هذه المعرفة؟ أهي احتمالية ترجيحية أم أنها تتجاوز مرتبة الاحتمال إلى درجة اليقين؟ ثم ما منابع هذه المعرفة وما أدواتها؟ أهي العقل؟ أم الحس؟ أم الحدس؟ ثم ما طبيعة هذه المعرفة وحقيقتها؟ وما علاقة الأشياء المدركة بالقوى التي تدركها إلى آخر هذه التساؤلات»(١).

المعرفة: لغة واصطلاحاً

بعد هذه المقدمة الموجزة نرجع إلى تفاصيل الموضوع وذلك بتعريف المصطلح تعريفاً يوضحه ويقرّبه إلى الأذهان، والتعرف على موضوعات المعرفة ومصادرها ووسائلها الصحيحة.

يتداخل مفهوم المعرفة مع مفهوم العلم في كثير من الأحيان، بحيث يصعب على الكثير من الكتّاب والمؤلفين التفريق بينهما أو تحديد التعريف لكل منهما تحديداً واضحاً يميز أحدهما عن الآخر، ومردّ هذا التداخل إلى معاجم اللغة التي تعرّف المعرفة بأنها العلم، يقول الفيروز آبادي: «عَرَفَهُ يَعْرِفُهُ عِرْفاناً وعِرفَةً، بالكسر، وعِرِفّاناً، بكسرتين مشددة الفاء: عَلِمَهُ، فهو عارفٌ وعريفٌ وعَروفَة»(٢)، ويقول صاحب المنجد: «المعرفة: إدراك الشيء على ما هو عليه»(٣). وننقل هنا رأيين لكاتبين يختلفان فيما بينهما حول تعريف العلم والمعرفة، فبينما يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله:

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي د. سعيد إسماعيل علي ص١٨٩.

(٢) القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ص١٠٨٠ ط١ مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣) المنجد في اللغة، ص٥٠ ط٢٦ دار المشرق بيروت.

إن العلم إدراك ذات الشيء وحقيقته والمعرفة هي إدراك أحوال الشيء وآثاره، يقول الدكتور سعيد إسماعيل علي: «إن المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحوال الشيء، وننقل الرأيين بالتفصيل المعرفة هي: «إدراك الشيء، بتفكر، وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، ويقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله، متعدياً إلى مفعول واحد، وعرفه يعرفه، معرفةً وعرفاناً، فهو عارف، والعلم والمعرفة يفرّق بينهما من جهة اللفظ ومن جهة المعنى، أما من جهة اللفظ، ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد تقول: عرفت الديار، قال تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] وقال تعالى أيضاً: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وفعل العلم يقتضي مفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] وإذا وقع على مفعول واحد، كان بمعنى المعرفة، كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأما من جهة المعنى فمن وجوه أحدها: أن المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحوال الشيء، فتقول عرفت أباك وعلمته صالحاً، ولذلك جاء الأمر في القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فالمعرفة تصور صورة الشيء والعلم حضور أحوال الشيء وصفاته ونسبتها إليه، فالمعرفة نسبة التصور والعلم نسبة التصديق.

ثانياً: أنَّ المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن العقل بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل: عرفه وإذا كانت المعرفة تعني حضور ما كان غائباً عن الذاكرة، ولهذا كانت ضد الإنكار، وضد العلم الجهل، قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]. ويقال: عرف الحق فأقر به وعرفه فأنكره»[1].

«يقولون لك من حقك أن تقول: عرفت الله، وليس من حقك أبداً

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي د. سعيد إسماعيل علي ص١٨٩.

أن تقول: علمت الله، ومن حقك أن تقول، الله عالم وعليم وعلّام وما أشبه، لكن ليس من حقك أبداً أن تقول: الله عارف، أو عاقل، أو ما أشبه.

والأسباب التي دفعت بهم إلى مثل هذه الأقوال، تعود في الحقيقة إلى المعاني والمفاهيم التي يحيطون بها كلاً من العلم والمعرفة، فالعلم فيما يقول الراغب: إدراك الشيء بحقيقته، وذلك عنده ضربان:

الأول: إدراك ذات الشيء وحقيقته، **والثاني**: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه، ويقول: إن الأول هو المتعدي إلى مفعول واحد، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والثاني المتعدي إلى مفعولين، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] والمعرفة فيما يقول الراغب أيضاً: «إدراك الشيء بتفكر، وتدبر لأثره، وهذه التعريفات للعلم والمعرفة هي التي تقتضي ألا تقول علمت الله، ما دام العلم إدراك ذات الشيء وحقيقته»[١]، ويقول الشيخ محمد جواد مغنية: «المعرفة: صورة الشيء عند العقل كما هو في الواقع، وترسم هذه الصورة في العقل بواسطة آلات البدن، كالسمع والبصر والذوق واللمس والشم، أو بواسطة الفكر والتأمل»[٢].

ونستطيع أن نعرّف العلم بأنه: صورة الشيء في الذهن كما هي في الواقع، ومعرفة القوانين العلمية التي وصلت إلى درجة اليقين والقطع في ثبوت الحقيقة.

---

(١) مفاهيم قرآنية محمد أحمد خلف الله ص١٤٠ سلسلة عالم المعرفة الرقم (٧٩) الكويت شوال ١٤٠٤هـ - تموز ١٩٨٤م.

(٢) معالم الفلسفة الإسلامية محمد جواد مغنية ص٢١٦ - دار القلم بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - تاريخ الطبع لا يوجد.

أما المعرفة فهي تشمل التعريف السابق للعلم ويضاف إليه اكتساب العلوم والثقافات المتعددة والمهارات اليدوية والآلية، ويشمل ذلك المجالات العلمية البحتة والإنسانية كالاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتعلم المهارات في الصناعة والزراعة وكل مظاهر التقدم التكنولوجي.

موضوعات المعرفة:

لا يمكن تحديد موضوعات المعرفة بسهولة، وذلك لتعددها وتشعبها وشمولها لأغلب جوانب الحياة، وأنَّ الإحاطة بهذه الموضوعات تعني الإحاطة بالحياة كلها، بكل تفاصيلها، ولكن يمكن الإشارة إلى أهم الأمور التي تعتبر موضوعات أساسية للمعرفة وهي:

١ - القضايا العقلية الأولية: وهي الأمور البديهية الواضحة التي يقتنع بها كل إنسان مثل: المثلث ثلاثة أضلاع أو الشمس أكبر من القمر أو ١ + ١ = ٢ وهكذا...

٢ - العلوم التجريبية الصادقة: والتي ثبتت بالتجربة والبرهان وأصبحت قوانين علمية ثابتة ككروية الأرض ودورانها، وقانون الجاذبية، وقانون أرخميدس وقاعدة الأواني المستطرقة وغيرها.

٣ - معرفة الأشخاص والأماكن إذا توفر عنصر الإلمام الواسع بسمات الأشخاص وخصائصهم والوصف الدقيق للأماكن، لكي لا نسمي مجرد رؤية الأشخاص والسير في أماكن معينة بطريقة عارضة معرفة بالمعنى الدقيق.

٤ - معرفة الوقائع وهي ما يمكن صياغته في قضايا صادقة.

٥ - اكتساب المهارات اليدوية والذهنيّة التي نصل إليها بتدريب ومران[١].

فمعرفة الأشخاص معرفة دقيقة تحيط بكل صفاتهم وسماتهم الجسمية والنفسية والعقلية، تعتبر من أهم أمور المعرفة وخصوصاً للأشخاص الذين يديرون دفة السياسة العالمية أو أصحاب النفوذ في مجتمعاتهم، ومعرفة الوقائع السياسية والعسكرية على حقيقتها، ومعرفة المهارات اليدوية، وتطوير القدرات الذهنية لدى الإنسان. كل ذلك يعتبر من موضوعات المعرفة المهمة «نريد أن نحدد موضوعات المعرفة» الأشياء التي يمكننا معرفتها أو ندعي معرفتها، أو حين ندعي المعرفة فماذا نعرف؟ الجواب التقليدي لهذا السؤال هو أن المعرفة معرفة بقضايا، وقضايا صادقة، مثلما أقول إني أعرف أن اليوم يوم الجمعة، أو أن ٢ + ٢ = ٤، أو أن الماء يغلي في مئة درجة مئوية فوق مستوى سطح البحر أو أن نابليون هزم في موقعة واترلو عام ١٨١٥، أو أن الشمس أكبر من القمر ونحو ذلك[٢].

مصادر المعرفة:

تنقسم مصادر المعرفة إلى قسمين رئيسيين: المصدر الإلهي والمصدر البشري.

١ - المصدر البشري: تتحدد منابع الثقافة البشرية في ثلاثة مصادر هي:

أ - المعرفة بالحس: كتصور الحرارة والنور والطعم والصوت

---

(١) نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين د. محمود زيدان ص١٣.

(٢) المصدر السابق ص١١.

والرائحة، وما يتوصل إليه العلماء من خلال التجربة في جميع المجالات مثل الكيمياء والفيزياء وغيرها.

ب - المعرفة بالعقل كمعرفة الحقائق الحسابية والهندسية، واستخراج النتائج العقلية بعد الحصول على نتائج التجارب العلمية على أرض الواقع والوصول إلى اليقينيات الكونية. إن الإسلام يؤكد على الترابط الوثيق بين التجربة والعقل، بين الحس والفكر، ولذلك يدعونا الله سبحانه إلى إعمال الفكر بعد السير في الأرض والنظر في ملكوت السموات والأرض، وبعد إجراء التجارب الصغيرة في المختبر أو الكبيرة في المعامل أو في أرض الله الواسعة ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦، ٨] ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، والإسلام يدعو إلى الالتزام بالأمور العقلية التي وصلت إلى درجة اليقين والوضوح الكامل ويرفض الظن في الحكم على الأشخاص والأشياء ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨] ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ج - المعرفة بالقلب: وهو ما يسمى بالحاسة السادسة، حيث يتوصل بعض الناس إلى بعض الحقائق أو القوانين أو النتائج الرياضية بدليل الحدس.

وخلاصة الأمر أن مصادر المعرفة البشرية هي كل ما يصل إليه الإنسان بكل الوسائل الممكنة من تقليد ومحاكاة وإعمال فكر وتجميع للخبرة البشرية واجتهاد وتشاور واستخدام الحواس (السمع، الشم، اللمس، البصر...).

د - المصدر الإلهي: وهو ما نزل عن طريق الوحي على الرسل والأنبياء، وهو المعرفة اليقينية الصادقة، لأن الإنسان يجهل كثيراً من الحقائق، وما توصل إليه من العلم قليل من كثير، وقد تخدع التجربة الإنسان، ولذلك نرى التطور في الآلات والتغير في النظريات العلمية، والتبدل في الأدوية المعطاة للإنسان، وقد يقصر العقل في معرفة الأشياء أو قد يقع في الخطأ والظن والاشتباه، إذ أننا لا نعرف إلا ظواهر الأشياء أما حقائقها الخفية فهي غائبة عنا ويؤكد هذه الحقيقة القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] كما يؤكدها بعض علماء الفيزياء المعاصرين الذين يرون أننا لا نعرف من العالم الفيزيائي سوى ظواهره، أما ما وراء هذه الظواهر فأمر خفي عنا[١].

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تعتبر مصدراً من مصادر المعرفة للمسلمين، فيها إخبار عن وقائع وأحداث ستقع في المستقبل، وفيها إخبار عن حالات مخفية لدى شخص أو أشخاص معينين، وفيها توضيح لفوائد أشياء ومضار أشياء كانت مخفية عن المسلمين، نذكر من هذه الأمور آيات على سبيل المثال لا الحصر، منها قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين د. محمود زيدان ص١٠.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٦، ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

إن المصدر الإلهي للمعرفة ضروري جداً للإنسان لكي يتبين معالم طريقه بوضوح ويتجنب الوقوع في المشاكل والأخطاء ويحفظ جسمه ونفسه من الاضرار والأخطار التي خفيت عليه أو التي لم يتوصل إلى معرفتها فكره وعقله، وبذلك تسهل على الإنسان كثير من الأمور ويتجنب الكثير من العقبات والعناء وكدّ الذهن والعقل. . . وذلك بفضل الله ولطفه ورحمته بإرساله الرسالات السماوية على يد رسله وأنبيائه عليهم السلام، وهذه المعرفة متنوعة تشمل المعاملات كنظام الأسرة والنظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وتشمل العبادات كمعرفة وجوب الصوم والصلاة وما إلى ذلك مما يؤخذ من كتاب سماوي أو حديث نبوي ويسمى مصدر هذه المعرفة بدليل السمع والنقل تمييزاً له عن دليل العقل.

أهداف المعرفة:

إن الإنسان لا يندفع نحو الأعمال الهادفة، والمجتمع لن يتغير نحو الأفضل بدون المعرفة، إذ أنَّ حصول الفرد على معلومات وثقافات يؤمن ويتأثر بها، تجعل ذهنيته ذهنية خاصة وتصوراته ورؤاه تصورات ذات صفات مميزة وبالتالي فإن سلوكه سيتغير وسينصَّب في قالب هذه الثقافات والتصورات. إن فائدة المعرفة تنبع من أنها تزيد من سعة أفق الإنسان وتنقله إلى عالم أرحب جديد ينهل منه في تخطيط حياته المستقبلية وتوظيف هذه المعرفة في تغيير مجتمعه وتوفير كل مستلزمات الخير والمنفعة له، وأوَّل منابع هذه المعرفة معرفة الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر وبكل ما جاءت به العقيدة والشريعة الإسلامية،

إن المعرفة الحقة هي التي تجلب الخير والمنفعة للناس وليست المعرفة هي التي تجلب العذاب والخراب والدمار للبشرية «حينما ربط الإسلام بين النظر والعمل في نظرته إلى المعرفة، وإنَّ هذا الربط يكسب المعرفة طابعاً اجتماعياً هاماً حيث إنه يجعل من المعرفة أداة تغيير وتطوير لا مجرد تأملات وسبحات فكر وخيال، وإنَّ التأكيد على ناحية النفع للمعرفة وعملية التوظيف حتى في مجال القول بأنها تتجه إلى الله خالصة لوجهه وإن هذا التوجه يفرض أن توظيف المعرفة لصالح الناس وما فيه قوام حياتهم ومعاشهم وعمارة الكون لأنَّ الاتجاه بها إلى الله يوجب العمل بأوامره، ومن أوامره أنْ يسعى الإنسان في الأرض ويعمرها»[1].

إنَّ أهمية المعرفة تظهر من إلقاء نظرة بسيطة على كل ما أنتجه العلماء من اختراعات وابتكارات جعلت الحياة السادية للإنسانية سهلة ميسّرة، وغيّرت من أساليب الحياة وأثرت في سلوكيات الناس، وتطور الطب بفضل المعرفة مما خفف الكثير من آلام البشرية. إنَّ نتائج المعرفة تشع على كل مجالات حياتنا التقنية والاجتماعية والطبية والثقافية، وهي تحيط بنا من كل مكان بل تنفذ إلى أعماق قلوبنا وترقى بها نحو الأفضل والأكمل والأحسن.

مناهج المعرفة:

يمتاز الإسلام بوضعه أسساً فريدة في الوصول إلى المعرفة الحقيقية والموضوعية، وحينما يتعرض الإسلام لهذه الأسس يؤكد عليها باستمرار ويهيىء لها كل مستلزمات وشروط المناهج العلمية الصحيحة، فالإسلام يحثُّ على استخدام العقل استخداماً صحيحاً، ويدعو إلى

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي: سعيد إسماعيل علي.

الاستفادة من التجارب العلمية، والايات القرانية التي تحث على استخدام العقل كثيرة جداً ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]، ويحذرنا الإسلام من خداع الحواس ﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ [النور: ٣٩]. فالحواس تعتبر الواسطة بين الإنسان والعالم الخارجي، ولذلك نرى الإسلام يؤكد على استخدام هذه الحواس استخداماً أميناً، ويعتبر الإنسان مسؤولاً أمام الله تعالى عن حواسه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ويشير الإسلام إلى بعض الأشخاص الذين لا يستثمرون حواسهم بصورة صحيحة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وبعد ذلك يفصل الإسلام في استخدام هذه الحواس واحدة واحدة، فكثير من الآيات تشير إلى البصر ﴿ فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ [ق: ٢٢] ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ ﴾ [الملك: ٤]. وبعض الآيات تشير إلى استعمال الأذن والدقة في تلقي الأقوال والأصوات ﴿ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٢] ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ﴾ [الزمر: ١٨] . . . وكذلك في بقية الحواس. . . ثم نلاحظ النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة الكثيرة التي تشير إلى أساليب المناهج العلمية في دقة الملاحظة وفي الوصول إلى النتائج والحقائق العلمية في إرجاع الأمور إلى الله سبحانه وعرضها على القرآن الكريم والاستفادة من العقل وملاحظة الواقع والعرف وتغير الأحوال ومراعاة الظرف والمحل والمقام والاعتماد على الدليل والبرهان والمحاججة وفق الأساليب العلمية ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾ [آل عمران: ٦٦] ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤]، والدعوة إلى كتابة العقود لكي لا تضيع حقوق النَّاس ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والتثبت من كل حركة ومن كل ظاهرة قبل الحكم عليها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦] والإشهاد على العقود والأحداث التي تقع في المجتمع، يؤكد الإسلام على ذلك كله بدقة متناهية ومنقطعة النظير، وبذلك يحفظ الإسلام الناس من الوقوع في الزلل والخطأ والاشتباه.

وفي ضوء هذه القواعد أخذ العلماء المسلمون مناهجهم في مختلف المعارف والعلوم، فوضع الفقهاء قواعد متينة لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية وذلك في علم خاص سموه «أصول الفقه» ووضعوا قواعد معينة لمعرفة رجال سند الأحاديث وسموه علم الرجال أو علم الجرح والتعديل، ووضعوا أسس لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف وسموه علم الدراية، ووضع علماء التاريخ مناهج لتصحيح التاريخ ومعرفة الوقائع والأحداث كما هي، وفي الطب والكيمياء والفيزياء والهندسة وغيرها من العلوم مناهج ظهرت وأثمرت في ظل الحضارة الإسلامية.

إنَّ المناهج الحديثة للوصول إلى المعرفة الحقيقية والموضوعية تطورت بصورة كبيرة جداً، وإنَّ أزمتنا الفكرية الحالية وتخلفنا العلمي وتخبط بعض الكتّاب والمؤلفين في كتاباتهم ومؤلفاتهم ترجع إلى أزمة في المنهج، أزمة في عدم الالتزام بالأصول العلمية والقواعد الموضوعية للوصول إلى النتائج المطلوبة «إنَّ أزمة الفكر العربي المعاصر هي بالدرجة الأولى أزمة منهج، ولا سبيل لنقلة في هذا الفكر دون الأخذ بالمنهج العلمي الذي هو محصلة خبرات وممارسات طويلة في طرائق التفكير وأساليب البحث من أجل الوصول إلى الحقيقة، حقيقة تفسير ماهية الإنسان وظواهر الطبيعة ومن ثم فالمنهج العلمي هو الاداة التي تعين على

نقل الحقيقة في ذاتها إلى تصور ذهني منطقي في النهاية»[1].

وخلاصة الأمر أنَّ نظرية المعرفة تهتم «أولاً بالبحث في طبيعة المعرفة الإنسانية، ومعنى ذلك أنْ نسأل عن تعريف المعرفة وما يميز المعرفة عن غيرها من مناشط العقل الإنساني، وما إذا كانت هذه المعرفة يجب أن تتصف دائماً بالصدق واليقين، أم أنَّ هنالك ما قد يسمى معرفة كاذبة أو احتمالية.

وتتساءل نظرية المعرفة ثانياً عن مصادر المعرفة أو طريقة اكتسابنا لها، فقد نقول إنَّ أبسط وسيلة لاكتساب المعرفة هو الإدراك الحسي، لكن قد نكتسب المعرفة أيضاً بوسائل أخرى مثل البرهان العقلي أو الحدس. فبالبرهان العقلي يمكننا الوصول إلى معرفة استنباطية كما نفعل في الرياضيات والمنطق والميتافيزيقا، بل تحتاج كل العلوم التجريبية إلى قدر من الاستنباط، والحدس هو الادراك العقلي المباشر الذي لا يتضمن استدلالاً ولا تسبقه مقدمات، مثلما يرى بعض الفلاسفة أننا نكتسب بفضله معرفتنا للقيم الخلقية والجمالية، أضف إلى ذلك أنَّ فلاسفة آخرين يرون أنَّ التصورات الأساسية في الرياضيات والمنطق نصل إليها بحدس مباشر ولهذا نلاحظ في هذا المجال اهتماماً خاصاً بموضوع الادراك الحسي لدى أغلب فلاسفة المعرفة المعاصرين.

وتبحث نظرية المعرفة ثالثاً في مجال معرفتنا، وتحدده بعالمين، العالم المحسوس أو العالم الفيزيائي، وعالم حياتنا العقلية. العقل قادر على معرفة ما في العالم الأول من أشياء ووقائع في نظر كثير من الفلاسفة، وإنْ كان الفلاسفة المثاليون وبعض الفلاسفة التجريبيين وبعض علماء الفيزياء المعاصرين يرون أننا لا نعرف من العالم الفيزيائي سوى

---

(١) قضايا في التاريخ الإسلامي منهج وتطبيق د. محمود إسماعيل ص٥ دار العودة - بيروت ١٩٧٤.

ظواهره، أما ما وراء هذه الظواهر فأمر خفي علينا. تبحث نظرية المعرفة أيضاً في طبيعة الحياة العقلية أو النفسية كما تتساءل عمَّا إذا كان بحياتنا العقلية خصوصية وذاتية لا يعرفها إلا صاحبها، أم أنَّ لها معايير خارجية سلوكية يدركها كل إنسان، وهناك من الفلاسفة المعاصرين من يضيف إلى هذين المجالين مجالاً ثالثاً هو ما يسميه البعض «العالم الثالث» وهو عالم واقعي مستقل عنَّا. عالم الحقائق العامة التي نكتشفها بالبحث ولا نخلقها، وهو العالم الذي يضم النظريات والقوانين العلمية الصادقة وقوانين الرياضيات والمنطق.

وتتناول نظرية المعرفة أخيراً موضوعاً جذَّاباً شائكاً هو مدى إمكان وصول الإنسان إلى معرفة موضوعية وهو موضوع جاء ردة فعل لموجة الشكَّاك في كل عصر، أولئك الذين يعلنون أنَّ المعرفة الموضوعية مستحيلة وأنَّ المعرفة الذاتية المتغيرة هي المعرفة المتاحة للإنسان، ويشهد تاريخ الفلسفة بردة فعل يقوم بها كثير من فلاسفة المعرفة للدفاع عن إمكان المعرفة الموضوعية ومواجهة حجج الشكَّاك»[1].

---

(١) نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين د. محمود زيدان ص١٠.

الأخلاق بين النظرة الفلسفية والإسلامية
تجارب فردية تتغير أم قواعد كلية تتكرر؟[1]

قد يكون الحديث عن الأخلاق مملاً باهتاً لا طعم فيه ولا حياة في عصرٍ خلا من الأخلاق ونبذ القيم الروحية وراء ظهره وأقبل على الملذّات إقبالاً منقطع النظير، في هذا العالم الذي يقيم الدنيا ويقعدها حول مباراة لكرة القدم أو لحياة ممثلة أو شخصية ثرية، ولا يأبه، ولا يُلقي بالاً لمقتل الآلاف من الناس أو لجوع الملايين منهم. في هذا العالم الذي تسحق فيه إنسانية الإنسان بكل معنى الكلمة، وبكل ما فيها من حب للحياة ومن إرادة قوية للعمل ومن عشق للحرية، وفي وسط هذه المعمعة وفي وسط هذا التقدم التكنولوجي الهائل تذوي روحية الإنسان ويقتل كل معنى للكرامة لديه، يُراد له أن يصبح آلة كالآلات التي يتعامل معها، يصنّع قوالب كما تصنّع الآلات في قوالب أُعدت لها..

في وسط هذا العالم الذي لا يدع لك مجالاً للتفكير في نفسك وفي ما يحيط بك، تجد صعوبة بالغة في التحدث مع الناس بالأخلاق وأن تدعوهم إلى الالتزام بالأخلاق... ولكن لا بأس من أنْ نقرع جرس الخطر، ونحذّر، ونُلقي الحجة ونبلّغ الناس ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].. قد يكون صوتنا خافتاً في وسط هذا الضجيج المتصاعد الذي يصُم الآذان، ولكن للحق والحقيقة أوعية تحملها وآذان تسمعها، إنَّ هذا الكلام يتقبله كل من ﴿كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

(١) نشر في مجلة البلاد، العدد ٤٤.

«يرى البعض من المراقبين الاجتماعيين أنَّ المشكلة الرئيسية التي تتخبط فيها المدنية المعاصرة هي مشكلة الأخلاق، وقد أصاب هؤلاء، فسلوك الفرد المعاصر القلق نحو نفسه ونحو مجتمعه هو علة القلق في المدنية الحاضرة. إذ هي قضت على كل إيمان بما بعد الموت، ووضعت في معتقد الفرد بأنه كائن مادي له بدء ونهاية، وجميع الطقوس الاجتماعية والتقاليد المتعارفة، إنما هي ظاهرة انخداع إنساني يستطيع أن يتحرر منها»[1]. . .

«أخلاقنا أكثر ما تظهر في الكلام ولا تطلب غير الخيال والألفاظ، ولا سبيل لها بوجه عام إلى الظهور في العمل وتقصّي الحقيقة، وما أكثر ما نطمئن ونستقر على إنجاز شيء تافه. وأمّا الحرية فترانا نسيء استعمالها ولا نستطيع تحديدها والدفاع عنها بجرأة لا تخلو من الوقاحة أحياناً، وترانا في جمودنا وتلاشي شخصيتنا وفقدان حاسة الواجب والتراخي والفتور والحرية الملتوية العرجاء نفقد الكثير من ذوقنا العام ونلتف حول رايات الشر ونسلّم قيادنا لكل ما يوقع بنا ويهدّ من قوانا ولا نهنأ إلا في العيش في كنف الأمة بأضعف ما فينا، تجرّنا ولا نحملها»[2].

إن أكبر عامل يهدد كيان البشرية بالزوال والانهيار هو الانحطاط الأخلاقي وتحطم القيم المعنوية، وتفكك العلاقات الاجتماعية، مما أدّى إلى ظهور الأمراض النفسية لدى الأفراد، وازدياد حالات الانحراف والإجرام في المجتمع، وبالتالي أصبحت الحياة جحيماً لا يُطاق.

---

(١) الإنسان والحضارة (مدخل دراسة) يوسف الحوراني ص١٢٢ منشورات دار الحياة - بيروت تاريخ الطبع لا يوجد.

(٢) أسس النهوض القومي العربي - أحمد كمال ص٢٠ - دار الأحد للطبع والنشر - بيروت ١٩٦٠م.

أهمية الأخلاق في الإسلام:

تظهر أهمية الأخلاق في الإسلام من قول النبي محمد ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» و«إنما» أداة حصر وقصر، تحصر وتقصر بعثة النبي محمد ﷺ بتكميل وإتمام عملية مكارم الأخلاق، هذه المهمة التي بدأها الأنبياء السابقون، فهدف الرسالة الأساس حسب هذا الحديث الشريف هو إكمال تربية السلوك البشري ليصل إلى أعلى درجة من الأخلاق الراقية، فالإسلام جاء ليسد النقص الحاصل في أخلاق الناس حتى إذا ما ابتعدت الأمة عن الأخلاق ابتعدت عن هدف الرسالة الأساس، وإذا ابتعدت عن الهدف الأساس انحرفت عن الإسلام وبطلت كل العبادات والتشريعات التي يقوم بها الإنسان المسلم «مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بعداً»[1] و«الصلاة عمود الدين» كما ورد في الحديث الشريف، لذلك اهتم النبي محمد ﷺ بتطبيق الأخلاق الإسلامية على نفسه أولاً، فكان ﷺ يتمثل في سلوكه كل ما طلب الله سبحانه ودعا إليه من محاسن الأخلاق، وكان خلقه ﷺ القرآن، أو هو قرآن يمشي على الأرض، لم يكن يدعو إلى ما لا يعمل، ولم يكن يقول ما لا يفعل، وكان ﷺ يقول: «لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له»[2] وأعظم وصف قرآني لأخلاق الإسلام المتجسدة في الرسول محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقد زخرت المكتبة الإسلامية بالكتب الإسلامية العديدة التي تفننت في عرض وتبسيط المواضيع الأخلاقية، وامتلأت بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الكثيرة التي تبيّن فضائل الأخلاق. إن أهمية الأخلاق

---

(١) ميزان الحكمة ري شهري م٥ ص٣٧٠.

(٢) ميزان الحكمة ري شهري م٦ ص٢٧٣.

في الإسلام من الأهمية والقدر العظيم بحيث تؤثر على قبول الصلاة والصيام «قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها، فقال ﷺ: لا خير فيها هي من أهل النار»[1]. وعن الإمام الرضا عليه السلام: «أوّل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة حُسن خلقه»[2].

تجربة فردية أم قواعد كليّة؟

كثُر الجدال والنقاش حول هذه النقطة: هل الأخلاق تجارب فردية أم آراء شخصية، أم عواطف مزاجية أم تقاليد يتعارف عليها الناس؟! هل تتغير الأخلاق من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان؟ أم هي حقائق ثابتة وقواعد كلية لا يمكن أن تتبدل أو تتغير على مرّ العصور والأزمان؟ انقسم المفكرون والفلاسفة الأخلاقيون أمام هذه التساؤلات إلى قسمين: قسم يميل إلى نسبية الأخلاق حسب المزاج الشخصي أو العُرف الاجتماعي، أو حسب تغيّر الزمان والمكان «إنَّ معظم الظواهر الخلقية لا تعتمد على المنطق الفرديّ، ولا يمكن أن تُقام عليها أدلة عقلية قاطعة كالأدلة التي تقام على الحقائق العلمية والتي لا يسع الإنسان إلاّ أن يخضع لها بحكم مقولات العقل وطبيعة التفكير، وإنما تعتمد على ما اصطلح عليه المجتمع وارتضاه عرفه الخلقي، ومن ثم تختلف الظواهر الخلقية باختلاف الأمم، وتختلف في الأمة الواحدة باختلاف العصور فما يكون خيراً في مجتمع ما قد يكون شراً في مجتمع آخر، وما تعدّه أمة ما فضيلة قد تعدّه أمة غيرها رذيلة، وما يراه شعب ما مباحاً قد يراه شعب غيره محظوراً. وكثير ما يختلف الحكم من الوجهة الخلقية على الشيء الواحد في أمّة ما باختلاف عصورها. ويصدق هذا حتى على الأمور التي تُعدَّ في نظرنا من الأصول

(١) ميزان الحكمة ري شهري م٣ ص١٥٤ مكتب الاعلام الإسلامي قم - إيران.
(٢) المصدر السابق ص١٤٠.

الاولى للحياة الخلقية ومن المسلمات في شؤون الأخلاق»[1].

وهناك مفكرون آخرون ينكرون ذلك، ويرفضون أن تكون الأخلاق نتيجة التجربة والخبرة، أو هي رضوخ للأمر الواقع، وإنما الأخلاق حقائق ثابتة على الناس الإيمان بها والالتزام في سلوكهم وفق قيمها ومبادئها، أي أن الأخلاق هي التي تتحكم في الواقع وهي التي تَسيّر الناس لا أن تسير وراءهم «تبدأ الفلسفة الأخلاقية لدى «كانت» من تبرير استبعاد استنادها إلى الخبرة، فليس هناك شيء أكثر إماتة للأخلاقية من أن نستقيها من الأمثلة، لأن المثال هو الذي يجب أن تمحصه الأخلاق لا أن تقوم الأخلاق على أمثلة أو حالات جزئية، إن استناد القوانين الأخلاقية إلى الواقع يفقدها أصالتها ونقاوتها. ذلك أنَّ مبادىء الأخلاق لا تستقى من الطبيعة البشرية المكوّنة من المشاعر والدوافع والميول، لأن هذه تفسد الأخلاق». . . «لا يتسنى قيام أخلاق بدون معتقدات على حد تعبير «سانتهلير» فالإيمان يجب أن يسبق العمل، واليقين أساس طمأنينة النفس، قبل أن تحدد لنفسها السلوك». . . «فليست الأخلاق مجرد سلوك يمارسه الإنسان وإنّما لا يصدر السلوك إلا عن اعتقاد، فالإيمان القلبي هو الذي يحرّك الإرادة، والإرادة تحرّك السلوك، فأصول الاعتقاد عند مفكري الإسلام على اختلاف مذاهبهم - تسبق العمل سبقاً زمنياً وعقلياً. إذ كيف تمارس العبادات دون أن يسبقها إيمان»[2].

إن الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً أن تكون الأخلاق تابعة لأهواء الناس وأمزجتهم المتغيّرة والمتقلّبة، بل هي صادرة عن الوحي الإلهي، ومطابقة للحقيقة والواقع ومستندة إلى المعرفة الإلهية بخفايا النفس البشرية

---

(١) بحوث في الإسلام والاجتماع د. علي عبد الواحد وافي ج١ ص٩٢ - الطبعة الأولى ١٩٧٨م دار النهضة - القاهرة - مصر.

(٢) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي د. أحمد محمود صبحي ص٢٥ - ٢٧، ١٩٦٩م. دار المعارف بمصر.

وغرائزها الحقيقية، وملبية حاجاتها الأساسية، هادفة إلى جلب المصلحة ودرء المفسدة، لذلك كانت الآيات القرآنية صريحة كل الصراحة في أن يلتزم النبي ﷺ وجميع المسلمين بالشريعة الإسلامية وبالأخلاق الفاضلة كما نزلت من رب العالمين، إنَّ اتباع الحق لأهواء الناس هو الضلال بعينه، وينتج عنه فساد السموات والأرض ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

إن الأخلاق الإسلامية أخلاق ثابتة ولن تتغير أو تتبدل إلى يوم القيامة، فيبقى الصدق صدقاً، ويبقى الكذب كذباً، ولن يكون الكذب في يوم من الأيام صفة محببة لدى الناس ولن تكون الأمانة صفة مذمومة، وهكذا. . . والاستثناءات لا تلغي القاعدة، فعند الضرورات تباح المحظورات، فالظروف الاجتماعية أو السياسية التي تفرض على الشخص أن يكذب، أو يفعل أي عمل غير أخلاقي بخلاف رغبته وإرادته فلن يحاسب على فعله هذا.

خصائص النظام الأخلاقي الإسلامي:

حينما نبحث عن النظام الأخلاقي في الإسلام، ونحاول أن نستقرىء الكتب الأخلاقية، نراها مشحونة بالأفكار الفلسفية والنظريات الأخلاقية التي تؤطر الأخلاق بإطار فلسفي عقلي تبريري - لا يوجد في الفكر الأخلاقي الإسلامي لفّ ودوران أو إيغال في شرح علل ومقاصد الارشادات الإسلامية في مجال الأخلاق، فالنصوص الأخلاقية الإسلامية صريحة وهي في توجيهاتها واضحة كل الوضوح، فهي تظهر صفاء وجمال ونبل الأخلاق الفاضلة، وتدعو المسلمين إلى التحلّي بها، والالتزام بها

في سرّهم وعلانيتهم على حدّ سواء. وقد تشير بعض هذه الأحاديث إلى ثمرات وفوائد بعض الأخلاق، ولكن يجب أن نركّز في أعماقنا أنَّ هذه الأخلاق هي أفضل وأصدق الأخلاق، وبالتمسك بها نبلغ سعادة الدنيا والآخرة. إنَّ النظام الأخلاقي الإسلامي يبتعد كثيراً عن الفلسفة وعن النظريات التي تعقّد الأخلاق وتميتها في قلوب المسلمين، ويدعو إلى تطهير الباطن والاتجاه نحو العمل الصادق. وفي مقابل ذلك فشلت النظريات الفلسفية الأخلاقية في الدخول إلى قلوب الناس بصورة عامة ودارسيها بصورة خاصة، لأنها تبحث في نظريات جامدة لا تمس الروح ولا تغيّر شغاف القلب، وبقيت تدرّس في المدارس والمعاهد كأي علم من العلوم الجافة «يكاد يكون الاتجاه بين المؤرخين والدارسين والمحدثين أن ليس في الفكر الإسلامي مذاهب أخلاقية معللين ذلك باستغناء المسلمين بتعاليم القرآن والحديث عن النظر في المسائل الأخلاقية فلم يشعروا بالحاجة إلى النظرة الفلسفية في مشكلات الأخلاق، أما اتجاهات القرآن أو الحديث فتنأى عن النظر الفلسفي فضلاً عن أن تكوّن مذهباً أخلاقياً ذا نسق معيّن إذ لا تغدو طائفة لها قيمتها من المواعظ والحكم، ولم تأخذ الأخلاق في الإسلام حظها من البحث والدرس والكتابة العلمية إلاّ بعد الاتصال باليونان، على أن جانب الاصالة والابتكار يعوزانها إذ كانت متأثرة بالأفلاطونية المحدثة، فضلاً عن أنَّ آراء الفيلسوفين الكندي والفارابي في السعادة كانت تختلط بآرائهما في النفس حيناً وبالمباحث الوجودية حيث نظرية الفيض حيناً آخر، ومن ثم كانت شهرة هذين الفيلسوفين بغير الأخلاق لأنَّ كلامهما فيها جاء في ثنايا عرض النسق الفلسفي العام»[1]. «النظريات والفلسفات الأخلاقية ودروس علم الأخلاق في المدارس والجامعات لم تقدّم منظومة عملية للقيم تطبق في المجتمع

---

(١) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي د. أحمد محمود صبيح ص١٥ - دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

والواقع العملي ولم تساعد في حل مشكلات الإنسانية في مسارها التاريخي نحو المستقبل... الفكر الفلسفي الأخلاقي لم يقدّم نظاماً أخلاقياً عملياً يقدر على احتواء المشكلة الأخلاقية وبقيت الإنسانية تعاني أزمة أخلاق، في حين أنَّ الإسلام قدّم إطاراً فكرياً وعملياً للأخلاق»[1].

إنَّ الإسلام يمزج العلم مع العمل والقول مع الفعل، وكذلك الأمر في الأخلاق فإنه لا دراسة ولا علم ولا اجتماع ولا اقتصاد من غير أخلاق، فإذا فصلنا الأخلاق عن العلوم التجريبية فإلى أي مصير يسير هذا العالم؟! إنَّ المصير مؤلم ومرعب ومخيف قد يقود إلى فناء العالم بأكمله... ولذلك فإن الأخلاق الإسلامية لا تقتصر على الشق النظري الذي يحدد الإطار الفكري للأخلاق وفق ما ورد في القرآن الكريم والسنَّة الشريفة، بل تتعداه إلى الشق العملي الذي يبين الممارسات العملية الأخلاقية في عالم الواقع، وكما طبقها الرسول محمد ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام والمسلمون الأوائل ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

معالم الأخلاق الإسلامية

حينما تتحدد أهداف ومعالم الأخلاق الإسلامية لدى المسلم فإنه سيقتنع بها ويؤمن بأحقيتها وصدقها وصلاحها للبشرية وبالتالي سيطبقها كاملة من غير نقصان، ويبشّر بها ويدعو بقية الناس للالتزام والتمسك بها، لأن التخلق بأخلاق الإسلام يحقق المجتمع الإنساني المثالي الذي يخلو من كل الجرائم والشرور، ويوفر الطمأنينة والراحة النفسية للمسلم، ويخلصه من كل أنواع الكآبة والكبت والقلق والاحباط، فيعيش المسلم سعيداً متفائلاً مستبشراً في حياته، فما هي معالم هذه الأخلاق؟ يقول الدكتور محمد عبد الله دراز:

---

(١) الفكر التربوي الإسلامي د. أسامة شموط ص٤٢١ - ٤٢٢.

١ - إنَّها أوامر من الله سبحانه، وواجبات شرعية.

٢ - إن الإسلام لا يرضى أن تنفذ أوامره تنفيذاً آلياً.

٣ - لا بد قبل كل شيء أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير، حتى يتشربها القلب، ثم تفيض عنه بعد أن تكون قد تحوّلت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية»[1].

ويذكر الشيخ أبو الأعلى المودودي ثلاث خصائص للنظام الأخلاقي الإسلامي وهي:

١ - إنه يجعل ابتغاء وجه الله ونيل رضاه غاية منشودة في الحياة الإنسانية، ويجعل ذلك مقياساً للأخلاق لا يقوم معه في وجه الارتقاء الخلقي شيء يعوقه عن الارتقاء والتقدم، ويهيىء للأخلاق من خشية الله تعالى قوة تحثّ الإنسان على القيام من غير أن تكون فيها يدٌ لعامل من العوامل الخارجية.

٢ - إنَّه لا يوجد بهذا التحريض والترغيب أخلاقاً مبتكرة ولا يحاول حط بعض الأخلاق الإنسانية المعروفة «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ولكنه يريد أن يجعل الأخلاق مسيطرة في جميع نواحي الحياة ومهيمنة عليها.

٣ - إنَّه يطالب الناس ويلتمس منهم إقامة نظام للحياة ينهض بنيانه على المعروف ولا يشوبه شيء من المنكر، ويدعوهم إلى أنْ يقيموا الخيرات في كل زمان ومكان، وأنْ يشيعوا إقامة هذه الخيرات في العالم، وهذه هي مهمة المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية[2]. ينبغي للمسلم أن

(١) كلمات في مبادىء الأخلاق د. محمد عبد الله دراز ص٣٣ - ١٩٥٣م.

(٢) معالم الثقافة الإسلامية د. عبد الكريم عثمان ص٢٨٩ - مؤسسة الأنوار - الرياض - الطبعة الثالثة.

يطمئن إلى أنَّ الالتزام بالأخلاق الحسنة هو لمصلحته وفائدته وسعادته، وأن ترك الأخلاق السيئة يجنبه الكثير من الشرور والآلام. إنَّ الإسلام يرى أنَّ تغيير النفس صعب مستصعب ولذلك جعل الإسلام هذا التغيير بمثابة الجهاد الأكبر في مقابل الجهاد الأصغر وهو الجهاد بالسيف وربط الإسلام الأخلاق بالعبادة ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إن تغيير النفس شاق وطويل وعسير، ويستطيع الإنسان الوصول إليه بالمران والتمرس وكبح النفس ومجاهدتها، وبالتدبر بآيات الله والأحاديث الشريفة، ومطالعة ما ذكره الأخلاقيون والروحانيون من طرق وأساليب وتنبيهات وتوجيهات، حينذاك يفتح الله عليه أبواب الإيمان ويهديه سبل التقوى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ولا قيام للأخلاق إلاّ بتطهير الباطن من خفايا الآفات مثل الرياء والعُجب بالنفس والحقد والغلّ والحسد. إنَّ كثيراً من الفروض الدينية تنطوي على معانٍ خلقية كالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها، وقد استنبط الصوفية من قوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] أنَّ القصد من الطهارة تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد مجرّد نظافة الظاهر بالماء مع تخريب الباطن وإبقائه محشواً بالأخبات والأقذار، إنهم يرتّبون الطهارة أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث.

الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

الرابعة: تطهير السرّ عمّا سوى الله[1].

(١) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي د. أحمد محمود صبحي ص٢٨٨.

إنَّ الأخلاق الإسلامية مقبولة لدى كل العقلاء، فهي تهدف إلى الخير وسعادة الفرد والمجتمع، وإنَّ عدم الالتزام بهذا يقود إلى هاوية السقوط والانحراف والتدهور في المجتمع. إنَّ تغيير النفس واصطباغها بصبغة الإسلام ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] أمرٌ ممكن وهو الملائم لهذه النفس بما أودع الله تعالى فيها من فطرته التي فطر الناس عليها، إنَّ ابتعاد النفس عن الإسلام والأخلاق هو ابتعادها عن فطرته، وإنَّ تغيير النفس وتوجيهها نحو الالتزام بالأخلاق الإسلامية هو عودة إلى الفطرة الحقيقية «أهم عامل يكمن وراء إمكانية تعديل وتغيير عادات وأخلاق واتجاهات الإنسان المكتسبة هو ما تمتاز به طبيعة هذا الإنسان من مرونة ومطاوعة وقابلية للتعديل والتغير والتعلم، وقد أدرك علماء المسلمين ومفكروهم هذه الحقيقة، فقال جمهورهم بإمكانية تغيير وتعديل خلق الإنسان وعاداته واتجاهاته المكتسبة، مهما كانت درجة رسوخها، وكان من بين هؤلاء العلماء والمفكرين الإمام الغزالي الذي قال بإمكانية تغيير خلق الإنسان، واستدلّ على ذلك بأدلة نقلية وعقلية، ومن بين الأدلة النقلية التي استدلَّ بها قوله ﷺ: «أحسنوا أخلاقكم»، فلو لم يكن تغيير الخلق الذي هو عادة أو هيئة راسخة في النفس أمراً ممكناً لما أمر به النبي ﷺ، ولو امتنع تغيير الخلق لبطلت الوصايا والمواعظ ولفقد الترغيب والترهيب جدواهما. ومن أدلة الغزالي العقلية على إمكانية هذا التغيير أنَّه: إذا كان تغيير خلق البهائم أمراً ممكناً فإنَّ تغيير خلق الإنسان يكون ممكناً من باب أولى، وذلك لتمتع الإنسان بالعقل والإرادة الحرّة، وتغيير الخلق يكون بالتربية والمجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة، فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه على خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه فيصير بنفسه جواداً، وكذا من أراد أن يحمل لنفسه خلق التواضع، وغلب عليه التكبّر، فطريقته في المجاهدة أن يواظب على

أفعال المتواضعين مواظبة دائمة على التكرر، مع تقارب الأوقات[1].

إن التربية الخلقية الإسلامية تتركز في اتجاهات أربعة:

أولاً: على تأديب النفس وتهذيبها.

ثانياً: على تصفية الروح وتنقية الباطن.

ثالثاً: على تثقيف العقل بالمفاهيم والأفكار الإسلامية.

رابعاً: تقوية الجسم حتى يستطيع أداء الواجبات الدينية على أكمل وجه. إن التربية الخلقية في هذه المجالات تسير في تناسق دون أن يطغى جانب منها على جانب آخر.

---

(١) الفكر التربوي العربي الإسلامي، عمر محمد التومي الشيباني ص١٦٣.

الاتجاه نحو التكامل[1]

ترددتُ كثيراً في الكتابة حول هذا الموضوع وعشت حالات قاسية بين الإقدام والإحجام، وتهيبت كثيراً في ولوجه والبحث فيه والكتابة عنه والدعوة إليه، ولم تمر بي هذه الحالة في خلال حياتي كلها. .

توقفت طويلاً أمام هذا الموضوع أمام أبوابه وفصوله أمام مقدماته ونتائجه. . . كيف لي أن أكتب عن الكمال وأنا لستُ بكامل؟! كيف أدعو الناس إلى التكامل وأنا لمّا أتكامل بعد؟! هوّن عليَّ ذلك الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة التي تشير إلى ضعف الإنسان ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨] ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر: ٥٣] والأحاديث الشريفة المتعددة التي تتحدث عن ضعف الإنسان وإمكانية وقوعه في الخطأ.

ولكنَّ هذه المشكلة النابعة أساساً من الواقع الاجتماعي المنحرف الذي يحيط بنا ويحاول بكل قواه أن يجرفنا بتياره العنيف ليسحق كل مواقع الحق فينا، ويقضي على كل مواطن الخير في نفوسنا. إنَّ هذا لا يعني أبداً أن نجعل النقص أمراً مرفوضاً وواقعاً لا يمكننا إنكاره، إنَّ حالات الضعف الإنسانية لا يمكن أن تكون أمراً مبرراً لنا لنحيد عن التكامل أو نضرب عنه صفحاً، بل يجب أن نزداد إصراراً على التكامل،

---

(١) نشر في جريدة المنتدى - العدد ٢٤٨ رجب ١٤٢١.

وأن نختزن العزم عليه وعلى السير في الطريق الموصل إليه مهما جابهنا من عثرات وعقبات، يجب أن تبقى هذه الجذوة الإيمانية في قلوبنا، لأنها إن زالت تزلزل إيماننا وستحيط بنا الوساوس والشكوك والأوهام وسنسير في اتجاه الانحدار والسقوط حتى لا يبقى في جعبتنا شيء اسمه الإيمان والإسلام - نعوذ بالله -.

إنَّ الإسلام دين الواقع دين الحياة بكل منعطفاتها وتشعباتها وملابساتها يدعو الإنسان إلى الارتقاء نحو الإسلام بكل ما يستطيع من قوة وعزيمة، ويدعوه إلى تحمّل المصاعب والمصائب في سبيل ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٨٤] هذه الآية تصوّر لنا المسير إلى الله الذي هو قمة الكمال تصوره بالكدح وما يرافقه من عناء وتعب. إنَّ هذا الطريق محفوف بصعوبات خارجية في الأعمِّ الأغلب، من المحيط الاجتماعي الملوّث الذي يسير في عكس التيار الإسلامي ومن عوامل متعددة داخل النفس الإنسانية، من عواطف وغرائز وشهوات ونقص في الإيمان نابع من نقص في التربية العقلية والنفسية الناشئة أصلاً من عدم وجود قادة ميدانيين يحوّلون الإسلام واقعاً على الأرض ويعملون على تربية الناس بتواصل واستمرار وفق برنامج محدد واضح الوسائل والأهداف. إنَّ عدم وجود هؤلاء القادة بالتعبير العام وليس بالتعبير القطعي الذي ينفي وجودهم على الإطلاق.

إنَّ الإسلام حينما يضع أمام أعيننا الأهداف العظيمة لا ينسى الواقع الحيّ المتحرك، وهذه ميزة عظيمة للإسلام جعلته ينتشر بسرعة في كل بقاع العالم، ويقبل عليه الناس بيسرٍ وسهولة، ويعتنقونه بسرعة مذهلة ويدخلونه أفواجاً أفواجاً.

إنَّ الإسلام يضع في الحسبان دائماً حاجات الناس وهمومهم وحالات ضعفهم ومواطن قوتهم فيخاطبهم على قدر عقولهم ويبدأ معهم من نقطة الصفر ويتجه بهم نحو الكمال الذي هو هدف عظيم من أهداف

الرسالة الإسلامية ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. إن التمام والكمال في كل مواقع النفس وفي كل مناحي الحياة هو من أهداف بعثة النبي محمد ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وإن السعي نحو التكامل يعني استيعاب مقومات الشخصية الإسلامية التي تكون قدوة للآخرين لأن يحذوا حذوها وخير قدوة وأسوة لنا هو رسول الله ﷺ و﴿ لَّكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والأئمة الهداة عليهم السلام الذين طالبونا باستمرار وبإلحاح بأن نكون دعاة لله بأخلاقنا وأفعالنا قبل أن ندعو إلى الله بألسنتنا «كونوا دعاة لنا صامتين» «كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم».. ومن هنا تنشأ مسألة ضرورة التكامل وأهميته في الإسلام. «إنَّ معرفة الإنسان الكامل، أو النموذجي، في نظر الإسلام واجبة علينا نحن المسلمين، لأنَّ الإنسان الكامل يكون بحكم المثال والقدوة وما ينبغي أن يُحتذى، فنحن إذا شئنا أن نكون مسلمين كاملين - والإسلام يريد صنع الإنسان الكامل - وإذا أردنا أن نصل إلى كمالنا الإنساني بالتربية والتعليم الإسلاميين، علينا أن نعرف من هو الإنسان الكامل، وكيف هي ملامحه، ملامحه الروحية والمعنوية، وسيماه، كيف هي سيماء الإنسان الكامل، وما هي مميزاته، حتى نستطيع أن نصنع مجتمعنا، أفراد مجتمعنا، وأنفسنا على شاكلته، وإذا لم نعرف الإنسان الكامل الإسلامي فلن يستطيع أحدنا أن يكون مسلماً كاملاً تماماً، وبعبارة أخرى، لا يستطيع أن يكون في نظر الإسلام إنساناً ذا كمال نسبي في الأقل»[1].

فما هو التكامل يا ترى؟ وما هو تعريفه؟ وما هي حدوده وضوابطه؟

يقول الشيخ محمد تقي مصباح في تعريف الكمال «فالكمال الحقيقي

(١) التكامل في الإسلام أحمد أمين ج١ ص٩ دار المعرفة للطباعة والنشر ط١ - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

لأيّ موجود عبارة عن الصفة أو الأوصاف التي تقتضيها فعليته الأخيرة»[1].

إنَّ المقصود من هذا التعريف هو حصول الكائنات على كامل صفاتها ووصولها إلى أقصى طاقاتها المقدّرة لها، فشبع الإنسان والحيوان إلى أقصى طاقته كمال، ووصوله إلى أقصى قوته كمال، وحصوله على كل رغائبه كمال، واستمتاعه بكل جوارحه وبكامل قدراتها هو الكمال، هذا تعريف عام للكمال يتناوله من ناحية فلسفية وفسيولوجية (حياتية).

أمّا التعريف الإسلامي للكمال فالمقصود منه: أن يتكامل الإنسان وفق المبدأ الإسلامي عمودياً وأفقياً، عمودياً: أن يصل إلى درجة الكمال الإسلامي صعوداً حيث يؤدي جميع الواجبات وينتهي عن جميع المحرمات ويحاول الاستزادة من كل السنن والمستحبات، ويحاول عدم ارتكاب المكروهات، يعني وصوله إلى درجة الصفاء الروحي الكامل، أما التكامل الأفقي، فهو: تكامله في جميع جوانب الشخصية الإسلامية العقلية والخلقية والروحية أي تكامل الإنسان من جميع جوانبه في حياته الإسلامية الشاملة لكل أبعاد الحياة، فالإنسان المسلم الكامل هو الذي توافرت فيه الصفات والمفاهيم الإسلامية في العقل والخلق والروح بتناسق وانسجام تامين وهذا ما سنبحثه مفصلاً خلال بحثنا هذا.

آراء في التكامل:

إنَّ أهمية التكامل وضرورته في الحياة الفردية والحياة الاجتماعية، وأثره في تقدم وسعادة البشرية وخلاصها من كل أنواع الشرور والآلام، هذه الأهمية وهذه الآثار العديدة، جلبت انتباه العديد من الفلاسفة

(١) معرفة الذات لبنائها الجديد، محمد تقي مصباح، ترجمة محمد علي التسخيري ص٢٣، مؤسسة البلاغ بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

والمفكرين السابقين والمحدثين على حدٍّ سواء، وانقسموا في نظرياتهم حول التكامل قسمين واتجهوا اتجاهين، اتجاه مادي يتلخص في نظرية «التنعم»، أي إشباع الحاجات المادية في كل أبعادها وفي كل قدراتها التي قدّرها الله سبحانه لها، وهناك نظريات روحية متعددة يلخصها الشهيد مطهري على النحو التالي:

١ - أول نظرية وأهمها أهلية للبحث هي نظرية العارفين والواقع أنَّ العرفاء هم الذين طرحوا للبحث مسألة «الإنسان الكامل» ويمكن القول بأنهم استمدوا نظريتهم من موضوع (آدم) وموضوع (النبي) و(الولي) والإنسان الكامل في (آخر الزمان) المهدي الموعود والآتي ذكره في جميع الأديان.

ولـ «ماسينيون» المستشرق المعروف كتاب تحت عنوان «الإنسان الكامل في الإسلام» ترجمة عبد الرحمن بدوي إلى العربية يقول فيه: «إن فرضية الإنسان الكامل ليس ميراثاً هيلينياً أي ليس ميراثاً يونانياً، ذلك أنَّ الفلسفة اليونانية لم تتحدث عن الإنسان الكامل وما تبحث فيه». وفي العالم الإسلامي طرح العرفاء هذا البحث وخصوصاً محيي الدين العربي بحث فيه كثيراً، وكتب فيه الكثيرون منهم عبد الكريم الديلي حيث ألَّف كتاباً باسم (الإنسان الكامل)، وكذلك ألّف عز الدين النسفي كتاباً بنفس الاسم، وكذلك ألّف السيد محمد البرقعي أخو السيد المرحوم السيد حسن البرقعي - وكان رجلاً عارفاً شاعراً. إنَّ للعرفاء مسلكهم ونظرتهم الواضحة في الكمال الإنساني والإنسان الكامل، وهي وإن لم يقبلها غيرهم، لكنها عندهم مسلَّمة تماماً، وهم على أساس منها يحكمون حكماً قاطعاً على الأفكار. وعلى أيّ حال فكلامهم عجيب. إنَّ العرفاء يعتقدون أن الحقيقة واحدة لا غير وهي الله.

إنهم لا يرون غير الله حقيقة بل يرونه دائماً ظلاً للحقيقة وسيماءً لها، ويعتبرون حقيقة كل شيء - رغم كونها ظاهرية - إنما باعتبار انتساب ذلك

الشيء لله، فكل شيء في نظر العارف هو شأن وصفة واسم الله أما إذا رأينا الأشياء في قبال الله فقد اعتبرناه شيئاً وكانت الأشياء شيئاً آخر. وهذا يعني أننا جعلنا له ثانياً.

وهم يرون أننا في الكفر والشرك والجهل والحجاب المحض سادرون فإذا متنا متنا في «ظلام» أي لم ندرك الحقيقة، وإنما يكمل الإنسان إذا أدرك الحقيقة ووصل إليها، ولديهم اصطلاح «الوصول للحق» ولا يعني - والعياذ بالله -أن يحلَّ الله في الإنسان إذ أنَّ ذلك هو المحال في حق الله، أو أن يتحد مع خلقه، فإنهم لا يرون الله ثانياً مطلقاً.

يقول الشبستري - ما ترجمته:

«إنَّ حلــولاً واتحـــاداً محـــال تعــدد الــواحـد عيــن الضــلال»

فإذا قال بـ (الحلول) فقد جعل الله ثانياً وهو عين الشرك وهو ما يفر منه. وإذا قال بـ (الاتحاد) فهناك شيئان اتحدا مع أنه لا يرى للشيء شيئية بحيث يكون ثانياً لله. إنَّ الخلق في نظر العارف تجلٍّ لا غير، والخلق لا يعني إلا الظهور.

وعلى هذا فالوصول يعني الفناء فيه، والفناء يعني أن يصل الإنسان إلى حيث يدرك الحقيقة كما هي، ويدرك نفسه بعد إدراك الحقيقة، فهو قبل كل شيء يدركه - تعالى - فيقول ما مضمونه «ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه» وحينئذٍ فلا يبقى هناك فرق بين الأنا والنحن، هذا هو الفناء.

فأصل كلام العرفاء، هو أنَّ الحقيقة شيء واحد لا غير، وغير الحقيقة أياً كان ليس ثانياً له، وإنما هناك تجليات وأسماء، والوصول للحقيقة يعني أن يصل الإنسان إلى حيث يدرك هذه الحالة تماماً، ويرى الله في كل شيء ومع كل شيء ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. مع

كل شيء بل وقبل كل شيء ولا يرى قوام كل شيء إلا به، ويرى كل شيء - في الواقع - فيه، ومن ذلك نفسه وحينئذٍ فلا تبقى (أنا) في البين. وهذا هو معنى (الفناء) الذي يقولون عنه بأنَّ الإنسان إذا وصل إلى هذه الحالة وحصل هذا الفناء والاتصال فإنَّ الفرد حينئذٍ يصبح - كما يعبرون - يد الله الباسطة، والعرفاء يعتقدون بالوصول.

وهذا هو «السلوك» و«السير إلى الله» و«السلوك إلى الله» ونحن إذ نعبر بـ(التقرب) نقصد به القرب منه تعالى، ولأنهم يعتقدون بالسير والسلوك والحركة إلى الله، وطي المنازل إليه، ويرون لمثل هذه المنازل نظاماً خاصاً كالمنازل المكانية، بحيث ما لم يطو المنزل الأول فمن المحال الوصول إلى المنزل الثاني فقد عيّنوا منازل لوصول الإنسان إلى الحقيقة. إنَّ كمال الإنسان - في نظرهم - واضح جدّاً، فالإنسان الذي لم يصل إلى الحقيقة ناقص محجوب، وغير ناضج وواصل، وإنسانية الإنسان واستعداده الأصلي، في هذا لا غير، وهو أنْ يعرف الحقيقة ويصل إليها، والذي لم يصل فهو بتأخر، أمّا مركب هذه المسيرة فهو «العشق والحب» و«الأنس» والطريق طريق القلب لا طريق الفكر والفلسفة وكل شيء آخر وكل كمال آخر في نظرهم يتشعب من هذا الكمال، نعم كل شيء كماله أما باعتبار أنه سبيل لذلك الكمال أو ناشيء منه.

فعندما نسأل:

هل الزهد كمال؟ يجيبون نعم، لأنه شرط الطريق.

وهل التواضع كمال؟ يقولون، نعم لأنه من شروط سلوك الطريق. وهكذا، فكل المحاسن الأخلاقية والهداية والإرشاد هي أشياء حسنة لأنها آثار لهذا الأمر.

وعندما يصل الإنسان، يصبح مظهراً لاسم الهادي وهو بهذا يرشد الآخرين ويهديهم. وهكذا نجد من الواضح لدى العرفاء أنّ الكمال يساوي

الوصول إلى الحقيقة، فالحقيقة واحدة لا تتعدد، وكمال الإنسان يعني الاتصال والوصول لهذه الحقيقة.

٢ - وللحكماء والفلاسفة نظرية أخرى حول الكمال الإنساني، فالإنسان الكامل في تصورهم يعرَّف بتعريف آخر يختلف قليلاً عما يقوله العرفاء. وليس في تعبيرات الفلاسفة تعبيرات وحدة الحقيقة، والوصول، والسير، والسلوك، والوصول والفناء بالشكل الذي نجده لدى العرفاء وإنما نجدهم يرون الكمال الإنساني كامناً في شيئين:

أحدهما: «إدراك الحقائق» وبعبارة أخرى «الحكمة»...

... إنَّ الحكيم الفيلسوف يرى الكمال الإنساني في معرفة العالم الكلية معرفة صحيحة بحيث يصبح هو عالماً علمياً. فالعالم العيني يتجسد في ذهنه عالماً علمياً، ولذا يقولون في تعريف (الحكمة) إنها «صيرورة الإنسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني».... فالإنسان الكامل في تصورهم هو الإنسان الذي تلقى الحكمة، ويمكننا أن نبحث في مصداق الحكمة، أمّا في أصلها فلا مجال للبحث. يقول القرآن الكريم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فكمال الإنسان - بنظرهم - يكمن في الحكمة، هذا هو الأمر الأوّل، والأمر الثاني هو العدالة، ويقصدون منها العدالة الأخلاقية،.... فالأوّل يعتبر كمال العقل النظري والثاني كمال العقل العملي، فالإنسان الكامل - من وجهة نظر الحكماء - إنسان ذو عقل حكيم في المسائل النظرية، ومعتدل من حيث الأخلاق في المسائل العملية ذلك أنهم يعتقدون أنَّ كل الأخلاق الحسنة معتدلة، بمعنى أنّها الأخلاق التي تستوفي فيها كل قوة وغريزة، حقها بعدالة، وهم يرون أن الحكمة في نفسها كمال لا مقدمة للكمال.

٣ - هناك نظرية أخرى هي النظرية الغربية المتداولة حيث يملك

الكمال الإنساني فيها جانباً مادياً، في حين أنه كان يمتلك في النظريات الماضية جوانب روحية، فالحقيقة والحكمة والعدالة والمحبة والجمال لم يكن أي منها مادياً، في حين أنَّ هذا الرأي يركّز على أن الكمال الإنساني، في القدرة فكلما كان أكثر قدرة وأكثر سلطة على الطبيعة والبيئة - وحتى الآخرين أبناء جلدته - فهو أكثر كمالاً.

○ ○ ○

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الباب الأول
خصائص الحضارة الإسلامية

الباب الثاني

مفهوم عام عن القيم الحضارية الإسلامية